

محاضرات في
الاتجاهات الحديثة في النثر العربي في السودان

ألقاها

الدكتور عبد الله الطيب

على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية

معهد الدراسات العربية العالية

جامعة الدول العربية

وقف العلامة عبدالله الطيب

الطبعة الثانية ٢٠١٧م

محاضرات

في

الاتجاهات الحديثة في النثر العربي في السودان

ألقاها

الدكتور عبد الله الطيب

[على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية]

معهد الدراسات العربية العالية

جامعة الدول العربية

الطبعة الثانية ٢٠١٧م

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر - السودان

٨١١.٩٦٢٤٠٨ عبد الله الطيب، ١٩٢١-٢٠٠٣م

ع ط.م

محاضرات في الاتجاهات الحديثة في النثر العربي في السودان/ عبد الله الطيب.

الخرطوم: مؤسسة العلامة عبد الله الطيب الخيرية للطباعة والنشر، ٢٠١٦م

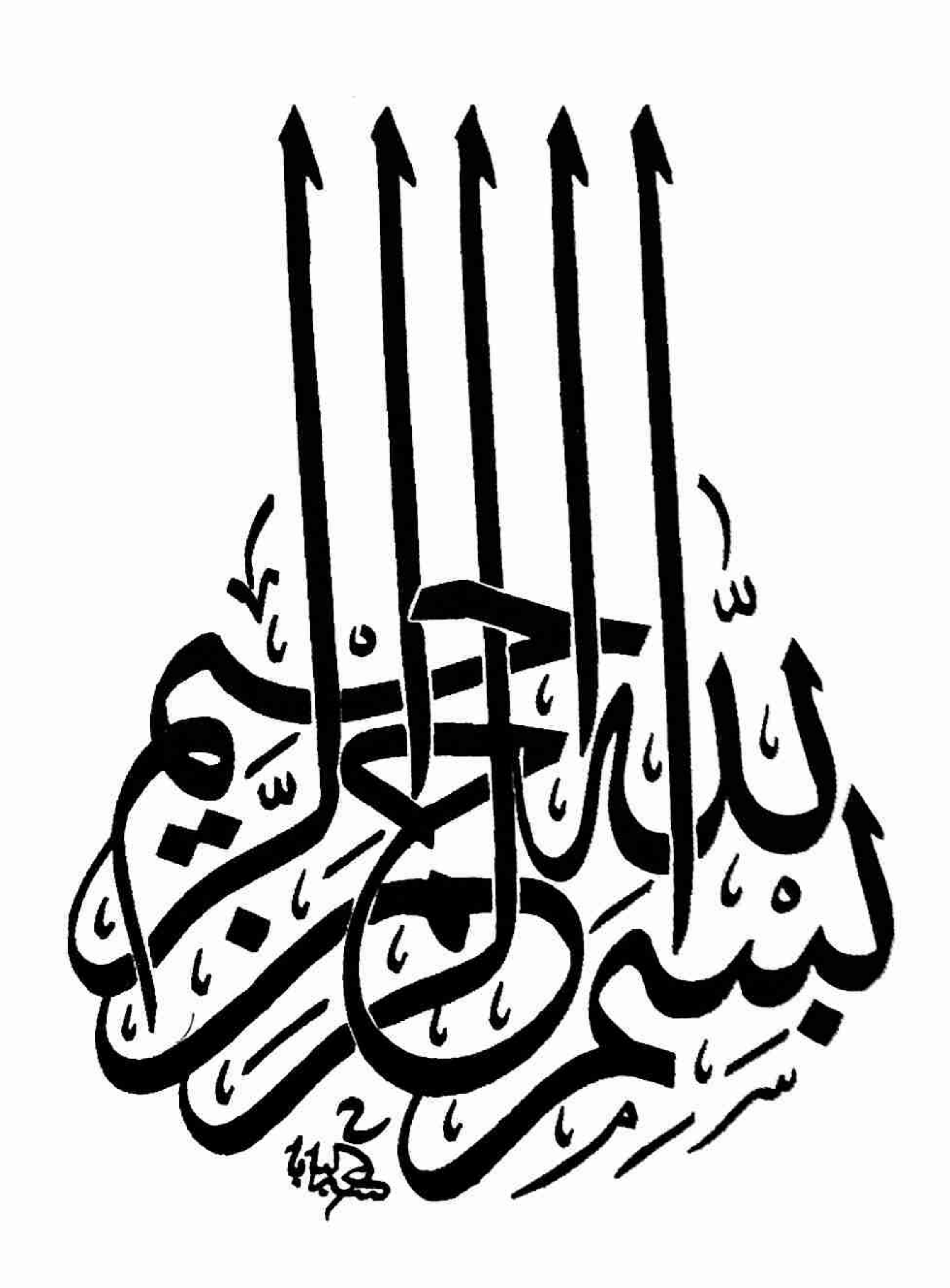
٨٠ ص، ٢٤سم.

ردمك٦-٥٢٤-٤-٩٩٩٤٢-٩٧٨

الطبعة الثانية

٢٠١٧م

شركة مطابع السودان للعملة المحدودة


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وله الحمد وبه نستعين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد، فهذه كلمة قصيرة أردت أن أؤرخ بها للنثر الحديث في السودان. وشهد الله ما كنت لأقدم على ذلك لولا دعوة كريمة تلقَّيْتُها من معهد الدراسات العربية العالية، بالقاهرة، التابع لجامعة الدول العربية، وقد أعجلني الزمن لكي أستطيع أن أتوفر على الدرس كما ينبغي، ولا قدرت على أن أنظر في كل مراجعة، على أني أحسب أن هذا القدر الذي أضعه بين يدي القارئ الكريم ربما أعان شيئاً ما على فهم جوانب من نثرنا السوداني الحديث، والله المستعان وبه التوفيق.

يبدأ تاريخ السودان الحديث بغزوة محمد علي باشا له عام ١٢٣٥هـ - ١٨٢١م- وقد كان قبل ذلك منعزلاً أو كالمنعزل عن التيار العالمي. وقد كانت نشأتْ فيه منذ القرن السادس عشر الميلادي دولة عرفها التاريخ باسم مملكة الفونج واسم السلطنة الزرقاء. ولا ندري على وجه التحقيق أصول نشأتها الأولى. وإنما يُدرى أنها هي التي وطدت الإسلام واللسان العربي في بلادنا [1] ثم إنها هي التي مهدت لقيام أمة سودانية حديثة ذات طابع خاص، بما استحدثته من نظام قبلي ديني لا يزال عميق الأثر في حياتنا إلى يومنا هذا، ولعلنا إن سمينا مملكة الفونج "دولة الفقرا والمكوك" أن تكون أقرب إلى الإصابة في وصفها، وعسى هذا أن يكون لقباً أصدق عليها من كلا اللقبين

(١) راجع السودان في قرن للدكتور مكي شبيكة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م الطبعة الثانية ٣/ ٤.

«السلطنة» الزرقاء و«مملكة الفونج». ذلك بأنها لم تكن إمارة ذات سطوة منبعثة من مركزها، كما كانت إمارة المماليك بمصر مثلاً، ولم تكن نظاماً إقطاعياً يخضع فيه كل إقليم لشريف واحد ذي بأس مطاع- كما كانت كثير من إمارات المشرق والمغرب الإسلامي-وإنما كانت السلطنة الزرقاء ضرباً من الحلف بين قبائل كثيرة، لكل قبيلة منها رؤساء يعرفون باسم الملك والمانجل والمانجلك ويشارك هؤلاء في الشرف رهط كانوا يدعون «الفقراء». وهؤلاء رجال الدين والعلم. وعسى أن يكون سلطان الفونج قد بدأ في مطلع أمره إقطاعيا قوياً، رأسه الملك عمارة بسنار، وساعده المانجلك عبد الله بن جماع بَقَرِّى[١] مؤسس مشيخة العبدلاب[٢] ولكن هذا لم يدم طويلاً. ويروى أن الشيخ عجيب بن عبد الله بن جماع هو أول من حرص على العلماء، وأكرم مثواهم وأقطعهم الضياع الواسعة وأدر عليهم أخلاف الرزق، فيكون بذلك أول من سعى في إضعاف سلطانه وسلطان نظرائه من المانجل والمكوك[٣] إذْ لمْ يمضِ بعدَ قيام السلطنة الزرقاء زمن طويل حتى نشأت طبقة من العلماء والصالحين تدعى لنفسها الشرف السماوي الموروث، وتناهض به الشرف الأرضي الذي كان يزدهي به الأمراء. ومن

---

(١) قرى تنطق قافها شديدة كالجيم الإنجليزية والراء مشددة مشبعة وقد كتبها ضباط الجيش المصري أول مجيئهم هكذا «جارى» وسموا محطتها الحديدية «جبل جارى» واستمر الناس على هذا الخطأ ثم قد أصلحوه بأخرة ولا أحسبها فعل الأمر من قرأ ولكن كله من أصل أعجمي.

(٢) راجع السودان في قرن ١-٢ إلخ.

(٣) راجع المصدر نفسه ٣/ ٤.

هؤلاء العلماء والصالحين من ادعوا لأنفسهم مجداً سابقاً لدولة الفونج، فتبرأوا بهذا ونحوه من أن يكون للملوك الفونج، ومناجلهم أدنى فضل عليهم.

وقد كان العلماء والصالحون في مبدأ أمرهم طبقتين تتنافسان تنافساً شديداً. العلماء أهل الفقه يرون لأنفسهم فضلاً على الصالحين أهل الطريق. والمتصوفة يرون لأنفسهم فضلاً على العلماء أهل الظاهر والشريعة، الغائب عنهم علم الباطن والحقيقة. وقِصَّةُ «دشين» قاضي العدالة من خير ما يروى في تمثيل هذه المنافسة. ولها روايتان، إحداهما نص في تفضيل المتصوفة أهل الباطن على علماء الظاهرة. فحواها أن دشين كان قاضياً عادلاً فقيهاً متمسكاً بالكتاب والسنة منحازاً عن مذاهب الصوفية. واتفق أن بنى أحد هؤلاء بامرأتين يقال إنهما أختان. فعزم عليه دشين أن يفسخ عقد إحداهما وبكَّته تبْكِيتا مرا على مجاوزته الشرع، فما كان من الصوفي الصالح إلا أن دعا على دشين بأن يفسخ الله جلده. فاستجاب الله له- ذلك بأن الصوفي كان يعلم عن طريق الباطن أن المرأتين لم تكونا أختين فما كان عليه من جناح في الجمع بينهما.

والرواية الأخرى تذكر أن «دشين» حمل إلى أهله وهو أقشر يتفسخ. وتراى له النبي فمسح على جلده فشفي، وأشار عليه بألا يتعرض للرجل الصالح، ولكنه أبى ذلك وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: أليس هذا الشرع شرعك الذي أوصاه الله إليك وقد أمرنا باتباعه، فإن جعلنا نتاول كل ما نراه مخالفاً له بأن له مخرجاً باطنياً، فكيف نقيم حدود الله؟. فسر النبي من قول «دشين» ودعا له بخير، ومضى دشين من الغد إلى الرجل الصالح وبكتّه بمرأى ومسمع من الناس وعزم عليه أن يفسخ عقد الأختين.

فاربدّ الرجل الصالح شيئاً ثم سكن وفعل كما أمره دشين، وعجب الناس من ذلك. فقال الرجل الصالح إن النبي تراءى له وأمره بالتزام ظاهر الشرع واجتناب الشبهات[1]. وهذه الرواية الثانية كما ترى فيها من انتصار للعلماء على الصالحين. ولكن فيها أيضاً اعترافاً بما يبلغه الصالحون المتصوفة من درجات الكرامة عند الله، حتى ليوشك أن يباح لهم ما يُحَرِّمُه ظاهر الشرع، وفيها مع ذلك كله أمر ثالث غاية في الأهمية وهو هذا الذي صار إليه أمر الفقيه دشين وخصمه الصالح إلى التراضي، وكذلك آلت المنافسة بين طبقتي رجال الدين المتصوفين والفقهاء آخر الأمر إلى التراضي، لا بل إلى الاتحاد الكامل. ذلك بأن الفقهاء جعلوا يأخذون أنفسهم بأدب السلوك، كما جعل الصالحون يأخذون أنفسهم بتعلم الفقه، وصار العلماء والصلاح فئة واحدة تعرف باسم «الفقهاء» – أي (الفقرا) الزاهدون في الدنيا، واحدهم الفقير، وأشهر من ذلك «الفكي» وهي لفظ محرف عن الفقيه. وقد صار الفكي في أواسط السلطنة الزرقاء إلى أن زالت دولتها – فإلى ما بعد ذلك– هو معلم الطريق ومدرس القرآن ومرشد العامة في كثير من أمور دينهم وكثير من أمور دنياهم.

وقد برز في القرن السادس عشر والسابع عشر رجال من «الفقرا» تبريزاً جعل الناس يحلونهم محل القداسة، من أولئك على سبيل المثال: الشيخ حمدود عبد الله (راجل درو)، وحفيده الشيخ المجذوب ود علي، وابنه الفكي حمد، والشيخ إدريس ود الأرباب، والشيخ كندي مر والشيخ عبد الماجد ود حمد جد الغبش. فأفاد بنو هؤلاء

---

(١) هذه القصة تروى وطرف منها في طبقات ولد ضيف الله أحسبه الرواية الأولى أما الثانية فقد سمعتها وأنا صبي بمسجد الدامر.

من بعدهم شرفاً دينياً جعلوا يتوارثونه سليلاً عن سلسيل وحفيداً عن حفيد. وما مضت أجيال على قيام السلطنة الزرقاء حتى كانت في سائر القبائل أسر دينية تلتزم سمت الفقر والصلاح وتأخذ بنيها بتعلم القرآن والطريق والتدين، والناس يكبرونها ويجلونها لإجلالهم جدها الصالح الأول الذي أسسها، ولاعتقادهم أن البركة قد حلت في أفرادها عن طريق الوراثة. ومن أقوال السودانيين «البركة ما بتقع في التراب» و(البركة مانزلت واطة)، وما هو إلا يسير حتى جعلت هذه الأسر تبسط لأنفسها نفوذاً بين قبائلها من طريق الإرشاد الديني، حدَّ كثيراً من نفوذ المكوك وأبطله في كثير من الأحيان[1]. هذا ولما تم لمحمد علي باشا فتح السودان فتحاً كاملاً بعد حملة الدفتردار التأديبية وتهدئته بعد ولاية محو بك، جعلت الحياة القبلية الدينية تعود إلى قريب مما كانت عليه، وإن كان كلا (الملك والفكي) قد سلبهما الوالي التركي نفوذاً عظيماً وأشرف عليهما كل الإشراف بما لديه من معدات الحرب الحديثة، وطرق الإدارة التي لم يكن لهم بها عهد.

على أن الولاة الأتراك لم يكونوا يدركون طبيعة النفوذ الديني كل الإدراك، وإنما كانوا يدركون شيئاً من طبيعة النفوذ القبلي الذي كان يمثله المكوك، فعكفوا على

---

(١) يقول بروكاردت في كتابه رحلة في نوبيا وسيأتي ذكره كاملاً من بعد، في ص ٧٧٣ حدود شندي القانونية آخرها المقرن وفي ذلك الدامر ولكنا شاهدنا كيف أن فقراء الدامر مستقلون استقلالاً تاماً».

هذا ولا استبعد أن تكون أكثر الأسر الدينية من أصول أقدم من سلطان الفونج ويقوى هذا عندي أن أكثرها نبتت في ربوع عرفت في عهود المملكة المسيحية النوبية لا بل في عهود المملكة المروية بالدين. مثال ذلك العيلفون فهي منزلة الشيخ إدريس ود الأرباب فهي أقرب من سوبا عاصمة المملكة المسيحية القديمة، ومثال آخر الدامر فهي في منطقة فيها آثار قديمة ويرى كروفورد أنها كانت تعرف باسم مدينة أبولو.

إخضاع هؤلاء بالتأليف حيناً والقهر حيناً إلى غير ذلك من الأساليب التي يلجأ إليها الساسة الفاتحون. أما رجال الدين فإنهم حرصوا على إكرامهم، وربما اعتقدوا الصلاح في بعضهم فصاروا لهم من جملة المحبين. وما هو إلا دهر يسير حتى جعلت البيوتات الدينية تخصب وتتكاثر أعدادها ويجوب أبناؤها أطراف البلاد يستطرفون فيها لأسرهم جاهاً جديداً من طريق العلم والتصوف، وربما التمسوه من غير هذين الطريقين كالذي فعله الزبير ولد رحمة (الزبير باشا) إذ هاجر بعد درس القرآن إلى الجنوب واشتغل بتجارة الرقيق، ثم هجرها إلى ا لاشتغال بالحرب، فبسط سلطانه على دارفور كلها، وهاجر إليه كثير من أبناء قبيلته وجيرانهم ليستظلوا بظله ويشاركوه في مجده. وقد تنبه الخديوي إلى خطورة الزبير، فاستدرجه إلى مصر ونفاه. ولكن ولاة الخديوي غاب عنهم أن خطراً أكبر من الزبير يكمن في خلاوي بربر والدامر والسرورراب وكترانج حيث كان المهدي يتنقل في طلب العلم والتصوف، ويعد نفسه لانتزاع السلطان من ولاة الخرطوم باسم الدين وشرفه القديم. وكان انتصار المهدي بلا شك ذروة ما بلغه النفوذ الديني في السودان. على أن المهدي لم يرث من (الفقرا) الذين سبقوه إلا مذهب الإرشاد من دون التصدي لمباشرة الحكم. وكان هو يعتقد اعتقاداً راسخاً أن الدين قد أفسده ما اشتغل به رجاله من السفسطة وتزويق الأقاويل، حتى حجبهم ذلك عن حقيقة نوره. وأنه لا بد للمصلح- وكان يرى نفسه ذلك المصلح- من أن يباشر الأمور بنفسه حتى يعود بها إلى الأصالة التي كان يتسم بها الدين أيام الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه. وقد هيأ له انتصاره الكامل على غوردون، وخلوص السودان كله إليه،

أن يحاول خلق نظام جديد، مستمد من الأصول والمثل العليا التي كان يؤمن بها، ولكنه لم يلبث أن توفاه الله بعد فتح الخرطوم وتخطيط البقعة (أم درمان) بقليل.

وصار الأمر كله من بعده إلى خليفته عبد الله التعايشي، ولم يكن لهذا من الدراية والأصالة والمقدرة على الخلق والقيادة الفكرية والروحية ما كان للمهدي. وإنما كان ساعداً قوياً ومريداً مخلصاً وامرأً ذا عصبية، ولم يكن له حظ كبير في الفقه وغيره من علوم الدين. ولم يكن يخلو ممن كان يتربص به الدوائر من حوله، ويراه دون أن يخلف المهدي، ويرى غيره أولى بالأمر منه. فاضطر إلى أن يستعين بعصبيته القوية في غرب السودان، وأن يطأ خصومه وطأة القاهر العنيف. وقد كان يعلم ما «للفقرا» من خطر عظيم، وحسبُه شاهداً على ذلك نجاح المهدية نفسها. وإذ لم يكن يملك من أساليبهم ما كان يملكه المهدي موفوراً أو جانباً منه، فقد آثر أن يأخذهم بالشدة، ويقول لكل من يبلغه عنه تبريز منهم (احفر لعملك زين وادفنا[1])، وكانت تضطره حاجة الحكم إلى أن يستعين ببعضهم، ولكن أكثر هؤلاء كانوا يخدمونه بقلوب وجلة، ونفوس منقمعة. وقل من كان منهم من أبناء البيوتات الدينية المعروفة. وما انقضى حكم الخليفة حتى كان «الفقرا» قد تضعضع جاههم أيما تضعضع، على أنه لم يزل كل الزوال.

ثم جاءت التركية الثانية وهي المعروفة باسم الحكم الثنائي. ولم يكن ولاتها أتراكاً مصريين مسلمين وإنما كانوا بريطانيين نصارى، تمرسوا بسياسة أهل الملل والنحل، وقدموا بضرب جديد من الحضارة لم يسبق لأهل السودان به عهد. وكان من أوائل

---

[1] راجع السودان في قرن للدكتور مكي شبيكة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م الطبعة الثانية ٣/ ٤.

أعمالها أن أبطلت الرقيق وتجارته، وفتحت مدارس نظامية تدرس علوماً جديدة، خيل إلى أكثر الناس أنها من قبيل الكفر، فنفروا عنها أيما نفور. وكان «الفقرا» أشدهم نفوراً وانقباضاً، على أن أحدهم ربما بعث كارهاً بأحد أقربائه إليها عملاً بالتقية وتظاهراً بالولاء، وهو على ذلك مُسرٌّ الندامة والاستغفار. ولكنه لم يمض زمن قليل حتى تبين للناس- فقرائهم وعامتهم- أن هذه المدارس سبيل إلى ضرب جديد من ضروب الجاه. وكان مما راعهم ما جعل يسمو إليه بعض الذين لم يكونوا يطولون إلى درجات الشرف من أبناء المستوطنين والرقيق العتقاء، حتى بلغوا منازل رفيعة عند أولي الأمر، أم لا يقول الله في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ النمل: ٣٤ ؟

فلم يجد الفقرا وغيرهم من عامة أبناء القبائل بداً[1] من أن يقبلوا بأبنائهم وحفدتهم على المدارس إقبالاً. وسرعان ما نشأ جيل جديد من الأفندية، يلبس الجبة والقفطان بدل الثوب والقميص، ويشك في كثير من القيم الموروثة بما يبديه من استعداد للأخذ من المدنية الجديدة. ثم عدل أكثر هؤلاء عن الجبة والقفطان إلى الزي الأفرنجي. ثم تبع ذلك انحراف سريع عن مألوف التقاليد. فجعل سلطان الآباء يضعف لازدياد اعتمادهم على أبنائهم الجدد الآخذين بنصيب من جاه السلطان وماله. وجعل سلطان الدين يتزعزع لانصراف الطلاب عن معاهده، وشك كثير من المثقفين

(١) وكثير من القارئين بحفص من غير تلقين، من المصحف المطبوع، يصكون الأسماع بجنادل لحنهم والعياذ بالله.

المحدثين في قيمة معارفه. ولا ريب أن العمران الحديث يصحبه نوع من الإلحاد الخفي. ثم تبع تعليم البنين تعليم البنات، والتطلع إلى شيء من السفور.

وقد شهد الجيلان الماضيان عفاء المعاهد القرآنية التقليدية، حتى لم يبق من قراء أبي عمرو إلا أشياخ قليلون. ثم أقبل الناس على الجرائد المصرية يتلقفونها تلقفاً، بلاغتها وسياستها وجهادها ورسالتها وثقافتها ومصوراتها. وكذلك جعل الاتصال بالحضارة الغربية يزداد من طرق شتى، أهمها اللغة الإنجليزية، والتدريب المدني والصناعي، والمشروعات الزراعية كمشروع الجزيرة. ثم الهجرة إلى جامعات أوربا بأخرة. وشهد الجيل الذي تلا الحرب العظمى شرهاً شديداً إلى المعرفة العصرية يطلبها من الدكتور طه حسين ومن الدكتور هيكل ومن مدرسة أبولو والعقد وولز وشو ورسل وغيرهم من أساطين الأدب الإنجليزي الحديث. وشهد الجيل الذي تلا الحرب الثانية اعتناقاً لأهواء ومذاهب جديدة مما تفتقت عنه أذهان المفكرين في الشرق والغرب، مثل: ماركس وغاندي والاشتراكيين البريطانيين ورجال الحركة الوهابية والحركة القومية المصرية.

وانتقلت السياسة من طور السلب إلى طور الإيجاب، وكان الحكام البريطانيون- في بعض أطوار إدارتهم- يبنون إحياء العصبيات القبلية والطوائف الدينية كما كان عهدها في سالف الدهر ليكبحوا بذلك جماح الأفندية المتطلعين. وندَّ عنهم أن هؤلاء الأفنديين في جملتهم لم يخرجوا عن أن يكونوا أبناء هذه العصبيات والطوائف وأحفادها، ورثوا ماضيها واستفادوا إليه طريفاً من المعرفة والآراء.

فلم يكن بدعاً حينئذ أن تجتمع كلمة الشيوخ والشبان كلهم أجمعين آخر الأمر على طلب الاستقلال حتى تيسر بفضل الله وعونه عام ١٩٥٦م. والجهاد الذي سبق الاستقلال وتلاه معروف تاريخه وليس هنا مجال الحديث عنه.

أما بعد فهذا عرض موجز لأطوار السودان الاجتماعية والسياسية في ضوء تاريخه الحديث من لدن غزوة محمد علي باشا إلى يومنا هذا، أردته ليكون تمهيداً، عسى أن يستعين به القارئ الكريم على ما سأعرضه عليه من بعد، من أطوار النثر السوداني واتجاهاته.

أما السلطنة الزرقاء فإنه لم يصلنا من آثارها الفصيحة شيء يذكر. إذ كان علماؤها يؤثرون التأليف باللغة الدارجة. ولعل كثيراً من المثقفين في العالم العربي الآن لا يعلمون أن للسودان لغة عربية دارجة. وهم معذورون في ذلك، إذ اللسان العربي الفاشي في السودان كله محصور في منطقة كأنها دائرة تبدأ من شمالي الشلال الرابع إلى قريب من خط عرض ١٢ ومن غربي جبال البحر الأحمر إلى النهاية القصوى الغربية لحوض النيل. وتحيط بهذه المنطقة قبائل سودانية لا تتكلم العربية، كالنوبيين القاطنين بين أسوان بمصر ودنقلا في السودان، والبجا المنتشرين من شمالي الهضبة الحبشية إلى تلال البحر الأحمر إلى صحارى مصر الشرقية. والقبائل الغربية القاطنة أقصى دارفور، والقبائل الجنوبية الساكنة في جنوب السودان. فمن قدم إلى السودان من شرق أو غرب أو شمال أو جنوب ظن أهله لا يتكلمون العربية، حتى إذا تجاوز هذه الحدود بقليل رأى انتشارها وانعدام الرطانة بالكلية.

ودارجة السودان العربية من أفصح اللهجات العربية العامية، وأقربها إلى السلامة والنصوع وأوفرها ذخيرة لغوية ولا يزال العامة من السودانيين يستعملون نون الإناث[1] والمبنى للمجهول[2] وما النافية[3]، وألفاظاً عربية محضة لا تجد مثلها مستعملاً في أنحاء العالم العربي الآن مثل قولهم «منون» في السؤال عن العقلاء- وهذا إنما يستشهد به النحاة استشهاداً بمعرض الحديث عن قول القائل:

أَتَوا نارِي فقلتُ منون قالوا سراة الجن قلت عموا ظلاما

هذا والقارئ الكريم يعلم أن التأليف العامي قد نشأ في العالم العربي كله بعيد القرن الثالث عشر، فلم يكن علماء السودان بدعاً في ما ذهبوا إليه من إيثار العامية. ولا ريب أنهم بِفعلهم هذا قد أعانوا على صقل اللغة الدارجة بما نقلوه إليها من التراث الديني الصوفي ومن أدب السير والأخبار فقويت ملكة التعبير فيها قوة قليلاً نظيرها في سائر الآداب العربية الدارجة ويحسبك أن تنظر في كتاب طبقات ولد ضيف الله، فقد ألف أواخر عصر الفونج وأسلوبه عامي، فيه نفس من الفصيح، فإنك واجد فيه شواهد كثيرة تؤكد عندك ما نذهب إليه. ولولا أن يخرج بنا الاستطراد إلى باب آخر من البحث، لا يتسع له هذا المجال لذكرنا لك أمثلة كثيرة من النظم السوداني العامي، والأمثال الدارجة الدائرة في الأحاديث حتى يومنا هذا نحو (كل شاة معلقة من كراعها)

---

[1] يقولون: جن وراحن ومشن أي جئن ورحن ومشين.

[2] يقولون ضرب بكسر الضاد والراء وكتل بكسر الكاف والتاء أي قتل المجهول وهذه صيغة ذكرها سيبويه في شاذ ما رواه والمضارع بفتح أوله وفتح ما قبل الآخر.

[3] ما مشى ***. ويستعملون أيضاً ما الزائدة مثال هو ما مشى أي هو ماش.

« والعرجا لمراحها» وما يجري هذا المجرى. وقد صنع طيب الذكر الشيخ بابكر بدري رحمه الله كتاباً جيداً في هذا وأحبسه الآن تحت الطبع، فليرجع إليه.

وهذا والقارئ يعلم أنه قد سرى في المجتمع الإسلامي وميض من التيقظ في أوائل القرن التاسع عشر من شواهده قيام محمد علي باشا بمصر، ووثبة الوهابيين بنجد، ونسك السنوسيين بالمغرب، وجهاد الفلاني بإقليم السودان الغربي المعروف باسم نيجريا الشمالية الآن. وقد ألم لمع من هذا الوميض بالسودان قبل الفتح التركي، أثر فيه أثراً بعيداً. إذ قدم السيد محمد عثمان الميرغني[1] إلى السودان من الحجاز وهو شاب، فساح في أرجائه ونشر الطريقة الختمية وبث بعض كتبه وأوراده وأوراد أسرته فيه. وهاجر الشيخ محمد المجذوب بن قمر الدين المجذوب[2] وهو شاب إلى الحجاز ولقي السيد أحمد بن إدريس بمكة ونشأت بينهما مودة، ثم أقام بالمدينة تسع سنين وأخذ فيها العلم عن الشيخ إبراهيم السويدي، وعاد فأسس زاوية بسواكن وألف في الطريقة الشاذلية على نحو لم يسبق له نظير في السودان. وتبعه على التأليف جماعة من أسرته. ولعل أثارهم هي أجود ما كتبه السودانيون من أوائل التركية السابقة إلى آخرها. وربما جاز لنا أن نسمي هذا الطور من أطوار النثر السوداني بالطور الديني الصوفي (١٨٢١م-١٨٨٥م) ثم في المهدية جاء طور آخر هو طور المناشير، ومبدؤه رسائل

---

(١) ولد عام ١٧٩٣م بالطائف وتوفي بها عام ١٨٥٣م ودفن بمكة بالمعلاة. راجع ترجمته في تاج التفاسير للمرغني، طبع مصر ١٣٧٥هـ

(٢) ولد بالمتمة ١٧٩٦م (١٢١٠هـ) ودخل المدينة سنة ١٢٣٥هـ وأسس زاويته بسواكن سنة ١٢٤٤هـ وتوفي بالدامر سنة ١٢٤٧هـ (١٨٣٢م) وليس هو الذي رآه بوركاردت كما وهم ترمنجهام وغيره.

المهدى، وقد كان المهدي يؤثر أن يمزج حديثه بالعامية ليكون أقرب إلى أذهان العامة، إلا أنه قد أدخل في أسلوب النثر تدفقاً وتدفعاً جديداً دعاه إليه حماسه، وما كان يحتاج إليه من مقارعة الحجة بالحجة، ويبدو لي أن المهدي تأثر بنثر المجاذيب، إذ كان تلقى التجويد والعلم بخلاوي الغبش ببربر. (وبين الغبش والمجاذيب صلة واشجة) ودرس النحو على الشيخ حسيب المجذوب فيما يروى. ثم تلا طور المناشير المهدية طور ثالث هو طور الصحافة الأولى وذلك بعد أن دخل التعليم المصري في البلاد من طريق كلية غردون القديمة. ثم نشأ جيل جديد في السودان بعد الحرب العظمى هو الذي تفرعت منه أكثر مدارس الأدب العصرية.

وسأتحدث في الكلمة التالية إن شاء الله عن طور النثر الصوفي. وأجعل ذلك بمنزلة التمهيد للاتجاهات التي اتجهها النثر في السودان من بعد. ذلك بأني أرى أن نثر السودان قد بدأ أول أمره دينياً صوفياً، حتى مدونو الأخبار أمثال ولد ضيف الله صاحب الطبقات (١١٣٩ - ١٢٢٤هـ) إنما قصروا حديثهم على الكرامات وما أشبهها ولو كان نثر الطبقات عربياً فصيحاً كله لبدأنا به ولكنه أقرب إلى العامية في جملته. وقد بلغ هذا النثر الصوفي الديني ذروته عند محمد المجذوب وأبناء أخيه من بعده[1]. ثم جاء بعد ذلك طور جديد وهو طور المناشير الدينية السياسية، والزعيم المعروف محمد أحمد المهدي هو الذي بدأ هذا التطور وبرز فيه، على أنه ألف أيضاً مؤلفات دينية محضة

---

(١) وبلغني أن لبعض أبناء الشيخ الطيب رجل أم مرح أثر صوفي يجري مجرى نثر المجذوب في مادته وأفكاره ولكني لم أظفر به وإنما طبع بأخرة كتاب للشيخ محمود نور الدايم في مناقب جاءه وهذا متأخر المعهد.

أشهرها راتبه. ثم جاء بعد ذلك طور ثالث وهو طور الصحافة والمقالات وبه يبدأ النثر المعاصر. ثم تنوعت الأساليب من بعد، وظهرت من الكتاب السودانيين مدارس لا زالت تربو وتنمو. وعسى ألا أقدر على أن أو فيها حقها في هذه الكلمات القصار، إذ المطبعة لا تزال تخرج السيل الدافق بعد السيل الدافق وحركة التأليف قد جعلت تنشط نشاطاً يحار معه الباحث اللبيب المتفرغ لدرسها، فضلاً عمن لا يكاد يلم به إلا لماماً. ثم إن السوداني الذي هو الآن مندفع في تيار هذه الحركة ربما كان أعسر شيء عليه أن يحاول الابتعاد عنها حيناً كما ينظر إليها نظرة الرقيب الناقد. ومن المؤسف حقاً أن بعد أسباب النشر بين السودان وسائر الأقطار العربية يجعل آداب نشرها ونظمها كالشيء المجهول. فلن أدع هذه الفرصة تزل من بين يدي قبل أن أشكر لهذه المؤسسة الكريمة أن دعتني لأتحدث عن بعض ظواهره، كما آمل أن أكون بما أقدم عليه الآن من عرض متعجل، لا أزعم أنه يطول إلى مراقي البحث المحكم، منبهاً عليه ليس إلا- وذلك حسبي وكفى، والله المستعان.

من النثر الصوفي إلى الصحافة

للشيخ المجذوب من النثر الصوفي الديني ضربان، أحدهما مسجوع- وهو الذي في الموالد الثلاثة وقصة المعراج ونحوها من مقدمات رسائله-والآخر غير مسجوع، وهو الذي في رسائله. والشيخ المجذوب متبع في كلا الطريقتين مذهب سائر علماء العربية في عصره والعصور التي خلت من إيثار النثر الفني الخالص بألوان من الصناعة والتسجيع، وإرسال النثر العلمي إرسالاً، لما كان يحتاج إليه صاحبه من التبسط في العبارة، والتأتي إلى الشرح والتوضيح. وقد بدا لي أن نثره المسجوع نفسه ضربان، ضرب لعله كان باكورة عمله، إذ نلمح فيه تداخلاً في العبارات، وإكثاراً من الاستعارة التي تكثر فيها الإضافات وتتابع الأفعال. مثال ذلك قوله في الفصل الأول من مولده اللآلئ الزهرات[1].

« ببسم الله الرحمن الرحيم ننسج أطلس الأخبار، وبالحمد لله العظيم نرونق حبور السطور الآثار، وبالشكر لله الحليم نقرط آذان المسامع بأقراط الولادة، وبالصلاة على المحبوب الأكبر نحلي نحور صدور أهل السعادة، قائلين اللهم لك الحمد قبل ما نقول وخيراً مما نقول، حيث أبدعت نور حبيبك محمد أول الإيجاد والإنشاء، واخترعت سره بقدرتك وعنايتك كما تشاء؛ ففلقت من نوره جميع الأنوار، وشققت من سره كل الأسرار، وجعلت الحقائق فيه راقية[2] وأنزلت عليه علوم الأسماء فقطعت

---

(١) مجموعة المجذوب- طبعة مصطفى الباي الحلبي، الفصل الثاني.

(٢) أحسب الصواب: « رائقة» حتى يستقيم السجع.

بذلك طمع مناظره وعلائقه، وضاءلت الفهوم عن إدراك حقيقته فأذعنت له كبار سره ورقيقته إلخ ».

ولعلك أحسست ما أشرت إليه من التداخل والاستعارة في أول هذا الكلام. وإن كان آخره قد جعل ينساب شيئاً كقوله: « ففلقت عن نوره جميع الأنوار، وشققت من سره كل الأسرار، وفي مطلع قصة المعراج مثل آخر من التزام السجع، وإبعاد المجاز على طريقة الصوفية، وذلك قوله[1] «أعرج في سماء الاستعانة بسر الاسم الأعظم الدال على ذات الله، وأخترق حجب الثناء بما عند الحق من معاني الحمد لله، وأسرح في رياض الامتنان لاجتناء أنواع أفضل الصلاة على رسول الله، هابطاً لأرض الخضوع والتنعم بحصول ما رمت انتقاه، مقرطاً آذان السامعين بأقراط مصوغة بخالص قوة الله باسطاً عبقري الحسن لنثر عنبر بعض أنوار حبيب الله، معترفاً بالعجز عن الحوم حول حمى حصر بعض البعض من ذلك والاكتناه، معرفاً نفس البطالة بوصفها اللازم خوف المظنة بالأخيار والاشتباه، مروجاً لها ببشارة الانتساب لأفضل أنبياء ورسل الله ، قائلاً الاسم محمد المجذوب عبد ورق مولاه... إلخ. وهذه القطعة كما ترى ملأى بألفاظ الصوفية وأخيلتهم، كثيرة الإضافات، متداخلة العبارات، على أنها بالرغم من ذلك كله تشف عن ملكة قوية- كما في قوله «باسطاً عبقري الحسن لنثر عنبر بعض أنوار حبيب الله» والعبقري ههنا لفظة قرآنية فصيحة، والناحية الشعرية في هذه الصورة أقوى من جانب الإغراب الصوفي وكقوله «معترفاً بالعجز عن الحوم حول حمى حصر بعض

(١) المصدر نفسه ٣.

البعض من ذلك والاكتناه، فغير خاف ههنا أن الكاتب عمد إلى الحديث ومن حام الحمى أوشك أن يقع فيه، فأشربه ألفاظ المتصوفية كالحصر والاكتناه وبعض البعض، وسائر العبارة سوى ذلك واضح مستقيم.

هذا والضرب الثاني من سجع المجذوب أشبه بسجيته ونفسه وملكته إذ يسفر منه الوضوح ويغلب عليه الانسياب، وتقصر السجعات، وأحياناً يتجاوز السجع إلى المزاوجة وشبه السجع، ومولده (النفحات الليلية في ذكر مولد خير البرية[1]) كله على هذا النمط، وهو عندي أجود ما كتبه من ضروب النثر المسجوع، بل لعله أجود نثر كتب في السودان طوال أيام القرن التاسع عشر، وقد أحس الناس بحسنه فهم يؤثرونه على موالده الأخرى، في ليليات الذكر. ولا يخلو المجذوب من أن يكون قد نظر فيه إلى مولد البرزنجي، وقد كان هذا معروفاً. ولكن الصياغة في جملتها تحمل طابعه هو ويحس الإنسان من خلالها نفسه وروحه. وأضرب لك مثلاً أول هذا المولد لتوازنه بالفاتحتين اللتين قدمناهما، ثم أتبع ذلك بأمثلة أخرى مما جاء فيه السجع ملتزماً وغير ملتزم، قال[2] أفتتح الإنشاء بحمد من الله العظيم إليه، معترفاً بالعجز قائلاً لا أحصي ثناء عليه، إذ وُلِدَ بعجائب قدرته الباهرة، إنسان عين الموجودات الباطنة والظاهرة، وفرع منه لأجله كل ما في الملك والملكوت، وخصصه بمكارم الفضائل ومعالي الصفات والنعوت، أشكره أن جعل ذلك محمداً، وأمد لنا من فياض مدده مدداً،

---

[1] المصدر نفسه ٧٤/٨٦.

[2] المصدر نفسه ٧٤.

وأشهد بلسان القطع واليقين، أن لا إله إلا الله الملك بلا معين، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ومصطفاه، ووليه وأمينه وصفيه ومجتباه، القائل في مقام التحدث بنعم ربه الكريم الأقدر، أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر، صلى الله وسلم بكمالات ذاته، وحقائق أسمائه وصفاته، على هذا العبد الكامل المبجل، وعلى آله وصحبه ذوي المقام المكمل، بلغ اللهم روحه الشريفة صلوات طيبة منيفة، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه.

فهذا كما ترى كلام فصيح منساب والسجع فيه قريب المأتى والفواصل غير متباعدة. وانظر إلى قوله يصف مقامه ﷺ، عند حليمه السعدية[1] نعم خيمت السعادة عليها ودامت البشائر لديها، وثوى عندها مثوى لا يمل، وكان يشبُّ في اليوم شباب الصبي في الشهر بعناية الرب الأجل، وقام في ثلاثة أشهر ومشى في خمس، وقوى في تسع وطابت له النفس، وتكلم معهم بلسان فصيح في هذه المدة، وشنف أسماعهم بلذيذ كلامه فما أنجده، وشق الملكان صدره الشريف لديها، وأخرجا منه علقة وأزالا حظ الشيطان فوصل الخبر إليها، وغسلاه بالثلج وملآه حكمة وإيماناً، وخاطاه وبخاتم النبوة ختماه إحساناً، ووزناه بألف من أمته فرجح بهم، وقبلا رأسه وبشراه بعناية ربهم، فردته بعد ذلك إلى أمه خوفاً عليه أن يصاب، فأجابتها أمه بعد أن سألتها أحسن جواب، وخرجت به أمه بعد أربع سنين من عمره إلى المدينة، لزيارة أخواله وليرى موضع ما يظهر دينه، ثم رجعت به منها تؤم بلدها الحرام، فورد وارد المنون بالأبواء

(١) المصدر نفسه ٨٢.

وانقضت الأيام، فحملته أم أيمن إلى جده عبد المطلب فضمه إليه، وقال إن لابنى هذا شأناً فبخ بخ لمن عول عليه، بلغ اللهم روحه الشريفة إلخ».

فأنت ترى هنا مع سلامة السجع، وما يلم به من الجزالة، مقدرة على سوق القصص واطراده. وليس سبب هذا أن القصة التي يذكرها الشيخ المجذوب قصة معروفة، مادتها موجودة في كثير من الأسفار والكتب والأوراد والأذكار، ولكن سببه فيما أرجح هو أن المؤلف له من الملكة ما يقوى به على جعل الحديث متماسكاً مطَّرداً، ولا أكاد أحس في هذا الفصل الذي قدمته من وهي إلا اضطراب السجعة عند قوله «وتكلم معهم بلسان فصيح في هذه المدة وشنف أسماعهم بلذيذ كلامه فما أنجده» فإن الجرس في المدة وأنجده ربما نبا شيئاً ما، ولكن نحو هذا قد يسوغه أن (ما أنجده) ملائمة لما سبقها من قوله «وشنف أسماعهم بلذيذ كلامه» .

هذا وأجود فصل في مولد النفحات الليلية على الإطلاق، وأحسبه من أجود ما كان يكتب في بلاد العربية جميعاً في ذلك الزمان، من حيث نقاء العبارة وتماسكها، وخلوها من وحشية التكلف، مع يسر السجع وقرب مأخذه، قوله في الفصل الأخير، يختم[1] بالدعاء « وإذا قد ذكرنا سيرة المحبوب، فلنرفع أكف الاحتياج لمالك خزائن الغيوب» ، فنقول نسألك اللهم بلسان الحال والمقال، ونثني عليك بكمال الكمال، وجلال الجمال، ونكرر الحمد والشكر على مزيد النعم، ونرفع أطباق الفقر لنيل مالك من الفضل والكرم، نرجوك يا أول يا آخر، ندعوك يا باطن يا ظاهر، نسألك يا حنان يا

---

[1] المصدر نفسه ٨٤.

منان، نطلبك يا دائم المعروف يا قديم الإحسان، متوسلين إليك بعبدك الكامل الخاضع، وناموسك المقبول الشافع، محمد مظهر تجلياتك الكمالية، وأحمد شاكر نعمك الإحسانية الجمالية، وبآل بيته سفن النجاة ومعادن الأسرار، وبخلفائه وبقية أصحابه ذوي العلوم والأخبار، أن تتفضل علينا بكمال رضاك، الموجب لكل خير ملكته يداك، نعوذ بك من غضبك وسخطك، وعقابك، وشدة لومك، ومناقشة حسابك، ونتوسل إليك بجناب الرسول المجتبى، ألا تخيب لنا قصداً ولا مأرباً ونتضرع به إليك وبمكانته لديك، أن تغفر الذنوب، وتستر العيوب، وتكشف الكروب، وتمن بالمطلوب، وتحفظ النفس والأهل والأموال، من البلايا والمحن والأهوال... إلى آخر ما قاله.

ولا يخلو المرء من أن يستشف طرفاً من عواطف الشيخ المجذوب نفسه في هذه الدعوات الأخيرة، إذ كان والده وأخوه كلاهما قد قتل في حرب المجاذيب مع الأتراك[1]، وأصاب سائرَ أهله تشريدٌ شديدٌ. ويعجبني من هذا الفصل بخاصة استعارته عند قوله «ونرفع أطباق الفقر لنيل مالك من الفضل والكرم، إذ تشبيه الأيدي المرفوعة بالدعاء بأطباق السائل غاية في الجودة، ولا أحسبني أغلو إن زعمت أن مثل هذا النثر قد كان في جملته سابقاً لزمانه، لما كان طاغياً إذ ذاك من هجنة الأساليب وركاكتها. وأحسب أن المجذوب مع كثرة إلمامه بألفاظ الصوفية ومذاهبهم في الاستعارة قد كان شديد النظر إلى صياغة ما كان يتلوه من القرآن. ونحن نعلم من المناقب أن كان حافظاً، وكان يعلم التفسير ويحتفل له. كما يخبرنا بوكاردت أن أهل

---

(١) كان ذلك عام ١٨٢١م أو ١٨٢٢م.

الدامر يتقنون تلاوة القرآن ويعنون به وبالحديث والتفسير[١]. وقل امرؤ يتقن طرفاً من العربية ثم يدمن القرآن، ولا يكتسب جانباً من جزالته.

هذا والمرسل من أسلوب الشيخ المجذوب يشبه في جملته بمذاهب العلماء والشراح في ذلك الزمان، غير أن فيه طابع الانسياب والتدفق وقد يقدم له المؤلف بسجعات ملتزمة لا تبلغ مبلغ ما ذكرناه في الجودة كقوله في مقدمة رسالة السلوك: وبعد فأنا محمد المجذوب، ذو البطالة واللعوب، والمساوئ، والذنوب، والطلوع والغروب، ولعل الصواب اللغوب بالغين. وقد يحسن أن نستشهد بجانب من هذه الرسالة[٢] إذ فيها سوى ما أشرنا إليه من خصائص الأسلوب، خواص أخرى، هي من صميم اليقظة الفكرية التي جعلت تسري في العالم الإسلامي، أوائل القرن التاسع عشر. قال رحمه الله «اعلم أن معرفة الشيخ المريد أمر مهم، فلا بد من الكلام عليه، خوف أن يدعي ذلك ما ليس كذلك، فيهلك ويهلك. الشيخ المريد لابد أن يكون عالماً بالله ظاهراً وباطناً، له تمكن في العلوم الشرعية ومعرفة تامة بمعاني القرآن والسنة وأسرارها، يأخذ العلوم من أصولها، فإذا لم يكن كذلك فكيف يقود غيره؟ لأنه لا يتأتى ملوك إلا بالشريعة، وأن يكون عاملاً بما يعلم، لا يتهاون بأمر من أمور الدين، ينقاد للكتاب[٣] والسنة بكلمته، يقبل الحق مهما أتاه ولو من حقير، وأن يكون متخلقاً

---

(١) Travels in Nubia, London, 1819- Damer

(٢) الوسيلة إلى المطلوب في مناقب الشيخ المجذوب، طبع مصر ١٣٢٢ هامش س١.

(٣) في المطبوعة (الكتب) وقد كانوا مما يحذفون الألف في مثال هذا الموضع.

بالأخلاق المحمدية ما أمكن رؤوفاً رحيماً، حسن الخلق، يقابل من يلقاه من المؤمنين بالبشاشة والشفقة والنصيحة، يصبر على أذى من آذاه مع المسامحة، وعدم المؤاخذة والحقد في الصدر عليه، وأن يكون عالماً بأدواء القلوب وآفات النفوس ومعالجتها بما كان يعالج به متبوعه صلى الله عليه وسلم، وأن يكون مهتماً بنفع الخلق لا سيما أتباعه، لا يسكت على ما يراه من الصفات الذميمة، ينبههم في الجملة والتفصيل، بحسب قابليتهم من الملاطفة، يقل العنف في أغلى[1] إشاراته، وأن يكون متوسطاً في أحواله لا مفْرِطاً ولا مفَرِّطاً، يسلك في كل شيء وسطه لئلا ينفر أو يبطل، وأن يكون ذا باع طويل في أخذ أموره من الكتاب والسنة مؤيداً لإرشاداته وإرادته بالنصوص القرآنية والأخبار النبوية. فإذا اجتمع فيه ما ذكرته فهو شيخ مرشد. وأما نحو الزهد والورع وما شاكلهما من الأمور فأمر باطني، ولكن الغالب ظهوره، وقد يظهرون بخلافه، فلأجل ذلك لم أذكره لك، ولا بد أن يكون جامعاً لما لا بد للمُريد منه من أمر الباطن والظاهر. وأما المُرِيْدُ فشرطه أن يكون معادياً لنفسه، مرتكباً كل ما خالف هواه، كالجوع والسهر والاعتزال وقلة الكلام وإقامة الحجة على نفسه لكل من خاصمه حتى يرى أنه هو الظالِم ...إلخ. أ هـ».

ولعلك قد تنبهت إلى ما ههنا من الاهتمام بالأخذ من الكتاب والسنة والاعتماد عليهما دون غيرهما، وجعل طريق التصوف تابعاً لهما. وقد يقال إن المجذوب لم يعدُ الأخذ عن الغزالي في كل هذا، ولا سيما حديثه عن المريد وما يلزمه من الانكسار

---

(١) (أغلى) هكذا والصواب أغلب فيما أرى.

والخضوع. ولكن متى تذكرنا الزمان الذي كان يكتب فيه المجذوب، وما كان يغلب على الناس فيه من التقليد المحض، وما صار إليه أمر الفقرا في السودان من الارتفاع فوق من حولهم ارتفاعاً جعلهم كأنهم ضرب من الآلهة، تبين لنا أن هذا ونحو مما كتبه الشيخ المجذوب لم يكن مجرد أخذ ليس إلا، وإنما كان بادرة من بوادر ثورة فكرية خطيرة تهيب بالناس أن يرجعوا إلى الكتاب والسنة، ويهتموا بدرسهما درساً صحيحاً، من غير أن ينسخلوا من تراث الصوفية وما تدعوهم إليه من أدب الباطن. وهذا الاتجاه كما ترى يشبه اتجاه الوهابيين في أمر واحد هو الرجعة إلى الأصول، ويخالفه في التمسك بالتصوف وطرائقه، وإن كان بلا شك يعمد إلى تطهير التصوف من كثير مما علق به من الشوائب. ولا أكاد أرتاب أن هذا الاتجاه قد كان له أثر قوي في تهيئة الجو لقيام المهدية، إذ لم يكن المهدي إلا داعياً إلى الرجعة إلى أصول الدين من طريق باب الشريعة والحقيقة، وقد كان كثيراً ما يذكر أنه تلقى بعض أوامره ونواهيه من الحضرة النبوية نفسها، لا بل من النبي نفسه، ومشاهدته عياناً.

هذا وقد كنت أود أن أقف وقفة يسيرة عند نثر الشيخ الطاهر المجذوب، ابن أخي الشيخ المجذوب، الذي كتب مناقبه من بعد، وقد خلصت لنا منه جملة صالحة فيها قطع جياد، لا سيما القطع التي تعرض فيها بالشرح والتحليل لقصائد عمه، كقوله يذكر قصيدته:

لقد طال شوقي يا أُمَيُّ لطيبة ... أشخصها طورا وطورا أناظر

قال: [1]:(وذكر في هذه القصيدة ﷺ وأرضاه تذكرة طول فراق محبوبه ﷺ وليالي مبيته بمسجد طيبة مدينة الرسول ﷺ والقوم فيهم من هو مباك تارة وذاكر أخرى. وذكر فيها تذكرة للساعات التي يقفها تارة اتجاه قبره الشريف ﷺ يصلى عليه ويسامره فيها وكان ﷺ إذا وقف تجاه القبر الشريف يصلي ويسلم على النبي ﷺ بهذه الصيغة:

((يا كامل الذات، يا جميل الصفات، يا منتهى الغايات، يا نور الحق، يا سراج العوالم، يا محمد، يا أحمد، يا أبا القاسم، جَلَّ كمالك أن يعبر عنه لسان، وعز جمالك أن يكون مدركاً لإنسان، وتعاظم جلالك أن يخطر في جنان، صلى الله سبحانه وتعالى عليك وسلم يا رسول الله، يا مجلي الكمالات الأربعة الأعظم. (وهي منسوبة لسيدي العارف بالله السيد أحمد بن إدريس ﷺ). ولنرجع لما نحن بصدده فنقول قد نال ببركته ﷺ عواطف كثيرة محسوسة للناظر وبشائر كذلك ولقد صدق في ما قال، وذكر فيها تردده بين الروضة الشريفة وبين مقامه المشهور بدكاك الزيت، الذي كان ملازماً للإقامة به حيث كان هناك، وناهيك بتلك المقامات والتردد في ساحاتها، وجدير بأن يتذكرها ويلهو بها، وقال فيها إني أشاهد في تلك البقعة ضياء النور من قبته ﷺ وذلك الضياء أيضاً يشاهده المحبون الصادقون، والزائرون المخلصون أيضاً. وذكر فيها أن ذلك النور ساطع إلى العرش أشاهده ببصري وبصيرتي، ولقد صدق في ما قال: فلقد شاهدنا ذلك النور من بركته حين زيارتنا للنبي ﷺ سنة خمس وسبعين بعد الألف والمئتين قد سطع من القبر الشريف إلى آخر الحرم مستعلياً نحو السماء قولاً صحيحاً لا

---

(١) مناقب الشيخ محمد المجذوب ص٧٦.

افتراء فيه ولا تلويح من فضل الله تعالى. وقال فيها وقد سبى بجماله ﷺ قلوباً كثيرة حتى هامت وصارت في حسفة إلخ. أ هـ).

وكنت أيضاً أود أن أقف عند الشيخ محمد المجذوب بن الشيخ الطاهر صاحب كتاب (تضييق المآزق على الشيخ علي عبد الرازق) وعند غيره من رجالات بيته وبني عمومته، ولكني أحسب أن الذي قدمته من نثر الشيخ المجذوب والقطعة التي استشهدت بها من نثر الشيخ الطاهر، كاف في الدلالة على نوع الاتجاه الذي كانوا يتجهونه من مزج بين الفقه والتصوف وسلامته في العبارة وتأثر بالقرآن.

النثر في المهدية

نصل الآن إلى الطور الثاني من أطوار النثر السوداني، وهو طور المناشير، وصاحبها الأول كما قدمت هو الإمام محمد أحمد المهدي، وتاريخه معروف، ليس هنا موضع تفصيله. وقد كنت ألمحت إلى أنه درس ببربر وأخذ شيئاً من النحو عن الشيخ حسيب المجذوب، فعسى أن يكون قد اتصل ببعض نثر الشيخ المجذوب من طريقه أو من طريق. ونحن إنما نعرض هنا لمناشير المهدى مع أنها ليست من حاق النثر الفني، لأنها في ذاتها تمثل اتجاهاً جديداً في التفكير وترك أثراً عميقاً في نفوس الناس، وقد كان المهدي يرى نفسه ولي الأمر جميعه دنيويه وأخرويه، وكان كما ذكرنا آنفاً يمني نفسه بهتك الحجاب الكثيف الذي ضربته القرون الطوال من الفقه والتأويل حول أصل الدين ومنبعه، ليصل إلى ذلك المنبع نفسه، ويدل الناس عليه. وقد وجد من المهدية وسيلة يبلغ بها ما أراده إذ كان جوها الصوفي يمكنه من أن يقول «خبرني سيد الوجود» أي «النبي ﷺ» ، ويهيئ له بهذا ونحوه من القول أن يثبت لنفسه الأخذ من المنبع مباشرة من دون حاجة إلى الوسائط. وقد اضطر في كل ذلك إلى الخصام والجدال والمنافحة، فأخذ بكتابة المناشير والإنذارات، يرسل بها إلى من يريد استمالته بالرفق، أو قهره بالحجة، أو إقناعه بالبرهان، ويرسل بها في الأفاق لينشر دعوته ويستثير نفوس الناس على ولاة الأمر الذين كان يبغى حربهم، وقد كان بلا ريب يتولى هو بنفسه كتابة المناشير أول دعوته، ولا يدع ذلك لغيره، وإنما اتخذ الكُتّاب بأخرة بعد أن اتسع أمره وألجأته حاجة الحكم إلى الاستعانة بهم. ولا يخفى ما في منهج المناشير من الشبه الشديد

بالصحافة العصرية، وأثبتت أن المهدي كان ربما كتب من المنشور الواحد نسخاً كثيرة وربما ألصقه بجدار المسجد ليراه الناس. ولو هيأت له الطباعة أول أمره لطبع صحفاً كالصحف التي نراها اليوم، وبعد فتح الخرطوم وسقوط المطبعة الأميرية في يده، وكانت من مطابع الحجر، لم يلبث أن جمع عدداً كبيراً من منشوراته وإنذاراته وراجعها وأشرف على طبعها ونشرها. وذلك عام ١٣٠٤. وقد استعان الخليفة بعده بهذه المطبعة نفسها، فأعاد فيها نشر بعض ما كان نشره المهدي، وأضاف إلى ذلك رسائل جديدة، كرسالة الحسين الزهراء.

وإذا علمنا هذا من حقيقة المناشير والإنذارات، تبين أنا لم نغفل إذ ذكرنا في مقدمة حديثنا أنها كانت بمنزلة المقدمة أو التمهيد لأسلوب الصحافة الذي جاء بعدها، في عصرنا هذا الحديث.

ودونك هذا المثال منها، مما كتب به المهدي إلى الشيخ محمد الأمين الضرير ينذره ويدعوه قال:-

((بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الوالي الكريم، والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم، وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي بن عبد الله إلى محمد الأمين جعله الله من المكرمين.

لا يخفى غزير علمك ودليل فهمك أن البيان لا يهدي وإنما الهادي هو الله تعالى، وقد أعلم الله نبيه ﷺ بأن ليس عليه إلا البلاغ المبين، وأنه لا يهدي من أحبه وإني قد كاتبتك لظن الخير فيك، أعلمتك بالحقيقة التي لا كذب فيها، ولست فيها بمتحيل ولا

بمتصنع، وإنما هو الحق الصدق الآتي من الله ورسوله، قد أيدني الله تعالى بالمهدية الكبرى، ومعلوم أنه لا يكذب على الله ورسوله إلا من لا خلاق له عند الله تعالى، من يعلم علم اليقين أن متاع الدنيا قليل لا يزن جناح بعوضة لا يؤثره، ولو آثره على ما عند الله زال كأن لم يكن وأعقب عليه حسرة لا آخر لها، فلا يؤثر جاه الدنيا على التقوى والاقتداء بالأنبياء والأصفياء إلا من لا عقل له، وإني عبد مسكين لا طاقة لي بقوام، فلو أني على نور من الله وتأييد من رسول الله ﷺ لما قدرت على شيء ولا ساغ لي أن أحكي بشيء وما أخبرت عن النبي ﷺ بما أخبرت إلا بأمر من رسول الله ﷺ وقد أخبر محمد ﷺ بأخبار ليست عند الأولياء ولا عند العلماء، وقد قال تعالى ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ النحل: ٨ وقد جمع النبي ﷺ أرواح الذين أنكروا مهديتي من الأولياء العارفين والعلماء العاملين ووبخ عليهم غاية التوبيخ، وعدد عليهم النعم الدينية والظاهرية والباطنية وما صرف عنهم من البلايا الحسية والمعنوية، وقال لهم ما شكرتم نعمة الله تعالى حيث أنكرتم مهدية فلان، وقد أعطاكم الله نعماً فما شكرتموها حيث لم تصدقوا بمهدية فلان، وفلان هذا قد شكر نعم الله فولاه عليكم وأعطاه المهدية فكيف تنكرون في المهدية له؟ قالوا تبنا يا رسول الله. فقال ﷺ اطلبوا منه العفو، فطلبوا مني العفو، فمن له سعادة صدَّق بأني المهدي المنتظر، ومن لا جعل الله عوارض تصده عن التصديق بالمهدية لي. وقد دلت كرامات على صدق أخباري عن رسول الله ﷺ ولكن لا تنفع الكرامات والآيات من أراد الله شقاوته، وقد أخبرني النبي ﷺ مراراً أن من شك في مهديتي كفر بالله ورسوله، وأن من عاداني كافر، وأن من حاربني يخذل في الدارين، ومالهُ وأولاده غنيمة للمسلمين. وليكن معلوماً عندكم أني لا أفعل شيئاً إلا بأمر النبي

ﷺ والجهاد الذي حصل للترك فإنه أمر من رسول الله ﷺ وأخبرني ﷺ بأسرار كثيرة إلى آخر فتح البلاد بالدين والسنة وبعض ما يحصل فيها، وإني منصور دائماً على من عاداني وأقسم ﷺ بأني منصور ومنظور من الله تعالى، وقد كشف لي يوم القيامة وأن الترك الذين قتلتهم شكوا للحق عز وجل وقالوا يا إلهنا ويا مولانا الإمام المهدي قتلنا من غير إنذار، فأقول يا رب أنذرتهم وأعلمتهم فلم يقبلوا قولي واتبعوا قول علمائهم وصالوا عليّ، وحضر شاهد على ذلك سيد الوجود ﷺ وقال لهم ذنبكم عليكم، الإمام المهدي أعلمكم وأنذركم فما قبلتم له وسمعتم قول علمائكم ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴾ القلم: ٣٠ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ سبأ: ٣١ - ٣٢ وأما عدم تسليم أهل الدولة من أول الأمر فإنها حكمة أزلية ووقت تسليمهم علمه عند الله وفي ذلك أسوة برسول الله ﷺ حيث لم تسلم له الملوك من أول الأمر وقد حصلت له ﷺ وأصحابه مشاق عظيمة ومقالات كثيرة مع الأكابر وعلماء اليهود والنصارى الذين كانوا يدعون أنهم يكونون أول أتباعه ﷺ وكانوا يستفتحون وكل ذلك وأنه ﷺ خير خليقة الله عز وجل، وأني مقتف أثره، ومهتد بنوره، وقد أخبرني أن الترك لا تطهرهم المواعظ بل لا يطهرهم السيف إلا من تداركه الله بلطفه، وقد أخبرني ﷺ أن الأمة تهتدي بي بدون المشقة التي حصلت له ﷺ وأتباعه، وأني مخلوق من نور العَنان قلبه ﷺ وبشرني ﷺ أن أصحابي كأصحابه، وأن أعوامهم لهم رتبة عند الله تعالى كرتبة الشيخ عبد القادر

الجيلاني، فإن الفضل بيد الله تعالى يؤتيه من يشاء وقد يدخر الله للمتأخرين ما عسر على المتقدمين، ولكن لا يخفى غزير علمك أن العلماء ينكرون كثيراً من أمور المهدي لأنه ليس على معتقدهم الذي يظنون، ولأنه يخالف مذاهبهم، فلمهديتي من الله دلائل فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. ومما يخبرك بعدم معلوميتك على لِيْن المهدي للعلماء اختلاف الروايات وكثرة الأقوال عن أهل الكشف، والمعلوم أن ما علمه في أزله لا يكون على هذه الروايات الكثرية، وقد وردت فيه أحاديث منها المقطوع والموضوع والضعيف، بل الحديث الصحيح، ينسخه الحديث الصحيح كما أن الآيات والتصديق بالمهدية صعب لا يتوفق له إلا من أدركه الله بسابق سعادة لأنه لا يهتدي إلى معرفة حقيقته إلا الأولياء العارفون الذين لم يحجبوا عن رؤية نبيهم ﷺ وأما ما ذكرت لي في رسالتك إليّ فمعلوم جواب كل كلمة منها في إصابة أمره لمن أنصف، وكنت أردت أن أبين جواب كل كلمة ولكن قد علمت أن الهداية ليست من كثرة البيان ولكن إن أمعنت النظر بعد تصديقك بمهديتي وجدت جواب ذلك أوضح من الشمس كما علم ذلك كل من صحبني من العلماء على التصديق ممن هو دون علمك في الظاهر، ولو علمت حقيقتي لما كنت تكتب لي ما كتبت ولما وسعك إلا المعاونة لي على ما قلدني الله تعالى، فتدارك عمرك فقد مضى ولا تؤثر على أجابتي أهلاً ولا مالاً ولا جاهاً لتفوز بالفوز العظيم والخير الجسيم ولا تعاون الظلمة بعد هذا فإنه لا يخافك ما أحدثوه في الإسلام، وقد أخبر النبي ﷺ فيهم بأخبار كثيرة ومثلك تكفيه الإشارة والسلام.

فهنا كما ترى روح قوي يعبر عن ذروة ما بلغه النثر الصوفي الدفعي في السودان من حيث الفكرة والعقيدة، إلا أنه دون ما استشهدنا به آنفاً من حيث الفصاحة

والجزالة، إذ في متنه وهو يحسه القارئ في مواضع كثيرة. مثل قوله «لا يخفى غزير علمك، ويخفى لا تتعدى بنفسها، ومثل قوله «ووبخ عنهم غاية التوبيخ، والصواب ووبخهم- وقوله فكيف تنكرون في المهدية، والصواب تنكرون المهدية وقوله قال لهم ما شكرتم نعمة الله حيث أنكرتم مهدية فلان، والصواب إذ أنكرتم. وقد يعتذر للمهدي في هذا ونحوه من الأساليب الضعيفة في العربية وفي بعض الألفاظ العامية التي كان يعمد إليها أحياناً في منشوراته وإنذاراته فإنه إنما كان يقصد إلى هداية الجمهور وكانوا أميين وما كان البليغ ليبلغ من قصده مبلغاً لو حرص على تجويد الصياغة وطلب الجزالة، وعسى أن يكون بعض هذا صحيحاً إلا أن القارئ لا يجد ما يعذره في نثر الراتب وهو مسجوع وفي كثير من سجعاته اضطراب وتعثر، ولا يضير المهدي بعد أنه لم يكن مجوداً ناصع الفصاحة، فحسبه ما وفق إليه من قوة الروح وشدة الحماس وما تيسر له من القيادة العظيمة التي جعلت من السودان شيئاً مذكوراً بعد طول خمول.

هذا وقد أخذ الخليفة بمنهاج المهدي في رسائله، وكان أحياناً يحتذي نموذجه، كما ذكر الدكتور إحسان في محاضرة حسنة لم تنشر بعد، ولكنه لم يكن يستحضر من القرآن ما يستحضره، ولم يكن يملك من حماسة القول ولا قوة الجدل والإسهاب فيه ما كان يملكه، وإنما كان حاكماً يؤثر الأمر والنهي على الوعظ والتذكير، وكان إذا أملى غلبت عليه العامية، ولعله لم يكن يملي إلا بالعامية، وكان كتابه يسطرون ذلك ولا يجسرون على تغييره إلا بمقدار ما يخرج به شيئاً عن جساوة الدارجة إلى شيء من سلامة الفصحى، ولا أدرى إن كانوا هم أنفسهم على حظ حسن منها، ويغلب على الظن غير

ذلك، إذ قل من يستنير بضوء الجزالة العربية، فيعدل عنها كل العدول، وإليك مما كان ينذر به: قال من كتاب إلى الحاج علي ود سعد أمير المتمة يأمره بأن يلحق بدنقلا ويجاهد، وهذا كأنه عزل[1] : «سبق التحرير إليك في خصوص توجهك لجماعتك إلى ذلك الحبيب بدنقلا للجهاد، وتأكد عليك بسرعة ذلك وعدم الالتفات سوى السفر وترك جميع العلائق، فيلزم على طبق الأمر السابق القيام بتلك الجهة على وجه الفور بدون تأن بعلو همة وصفاء نية وحسن طوية، حيث أنك من الأصحاب المأمول منهم بذل الهمة في الله والمساعدة في إقامة دينه، بعد وصولك لدى الحبيب محمد الخير فإن رأى مصلحة الدين في رجوعك في تلك الجهة التي أنت بها فلا مانع من رجوعك كما أشرنا لك سابقاً. إنما يلزم سرعة النفار إليه وقطع كافة العلائق لما في ذلك من الخير الذي لا يدرك مداه، وأما ما أنت مشغولاً به الآن من الخدمات والاستعدادات للسرايه المعينة للجهة البحرية وحيث أن الحبيب أحمد عبد الله وكيل العامل العمومي محمد الخير هو المسئول عن ذلك والمنوط به الأمر، فعين من طرفك وكيلاً يقوم بذلك ويكون تحت أمر ونهي وإشارة الحبيب أحمد محمد عبد الله أسوة وكلاء العملاء الذين بتلك الجهة كما أشرنا إليك سابقاً بذلك. وحاصل المطلوب أن تجتهد بلحاق محمد الخير ولا تنتبه لغير السفر إليه على جناح السرعة والظن بعلو همتك[2] أن يحصل منك ذلك في أسرع وقت والمأمول منك المبادرة لامتثال ما نأمرك به دون التفات لغيره.

---

(١) هذا من مجموعة لم ترقم بعد بدار المحفوظات بالخرطوم.

(٢) رقم ١٢ بدار المحفوظات وهي مما استشهد به الدكتور إحسان.

شكر الله سعيك وبارك فيك ثم غاية ما أوصيك به تقوى الله والتشمير في مرضاته والشوق إلى لقائه في روضات جناته هذا والسلام».

وهذا الإنذار جلي فيه أسلوب الأملاء وما قدمنا ذكره من لهجة الأمر والنهى. ومثال آخر يجري هذا المجرى ما كتبه الخليفة، (بعد البسملة والصلاة وبعد فمن عبد ربه خليفة المهدي عليه السلام إلى محمد نور الدين، مِنّا لكَ جزيل السلام، ورحمة الله وبركاته على الدوام، ثم نعلم الحبيب حيث أنه تكرر الطلب منا لكم بالحضور لأجل التوجه للجهاد، وحددنا لكم ميعاد خمسة عشر من شهرنا هذا وهو ربيع الآخر فينبغي بوصول جوابنا هذا إليكم وفهمكم لا يكن لكم عايق عن الحضور سوى مسافة الطريق، فإن الحال داعي لحضوركم وها نحن في انتظاركم لازم ثم لازم من ذلك بدون موانات، حيث أن الجهاد في سبيل الله تعالى لا يوازيه عمل وقد سمعتم في بيان فضله والحث عليه وشدة الوعيد في التأخر عنه ما فيه الكفاية والعاقل تكفيه الإشارة والسلام).

وقد يتذكر الخليفة أحياناً ما كان يلزمه بحكم تصديه للقيام مقام المهدي من تذكر الناس ووعظهم، فيخطب صحابه ويضرب لهم الأمثال، فيكتب الكاتب من ذلك ما يعلق بذاكرته ويرسل به إلى الأقاليم ليتدارسه الناس. من ذلك مثلاً[1] ، وبعد فإن سيد الجميع خليفة المهدي عليه السلام قد ذاكر بعض الإخوان بالمحابية والموادة وحذرهم عن التنافر والتنافس والتباغض لما في ذلك من الفشل والخذلان المؤديين إلى الوقوع في

(١) هذا من مجموعة لم ترقم بعد بدار المحفوظات بالخرطوم.

المهالك والعياذ بالله. وضرب لذلك مثلاً جامعاً محتوياً على الحكم والأسرار، منطوياً على عوارف المعارف ولوامع الأنوار، مبيناً حالتي الاتفاق والخلاف، قال ﷺ: إذا حضر أربعة رجال مسافرون لبلدة بينهم وبينها مسافة ثلاثين يوماً، وكل واحد منهم عنده جانب من مهمات السفر. فقال أحدهم أنا خبير عارف الطريق، وقال الثاني أنا عندي الماء الذي يحتاج إليه المسافر، وقال الثالث أنا عندي الزاد، وقال الرابع أنا عندي جمل أحمل عليه الزاد وأحملكم عليه، وترافقوا وتوافقوا على السفر وسافروا وهم في حالة الاتفاق إلى أن قطعوا نصف المسافة يعني ساروا خمسة عشر يوماً وبقى خمسة عشر يوماً، حصل بينهم خلاف فقال الخبير أنا لا أسافر من هذا المحل، ولا أدلكم على الطريق وقال صاحب الماء أنا لا أعطيكم زاداً تأكلونه، وقال صاحب الجمل أنا لا أعطيكم جملي تحملون عليه، والحال أنهم في نصف المسافة فلا يستطيعون الوصول إلى مقصدهم ولا يستطيعون الرجوع إلى وطنهم فهلكوا في نصف المسافة. وهلك كل واحد شؤم خلافه وهلك بهلاكه الباقون لما بينهم من الارتباط وعدم استغناء أحدهم عن الآخر.

وقد كان عمال الخليفة يملون مثله، وكان حظهم من خيار الكتاب دون حظه. ويتفاوتون في ذلك، فمنهم من تكون رسائله كلها دارجة صرفاً، ومنهم من يتسامى فوق ذلك قليلاً كما فعل كاتب الأمير يونس ود الدكيم في هذه الرسالة إلى الخليفة. قال[1]. «كذا قد وجدنا بالجيش إخوان مداح، البعض منهم من جماعة طيفور اسم أحدهم رضوان والثاني الجبر ولابد معهم إخوان وكذا واحد اسمه محمد عبد الملك

---

(١) دار المحفوظات- من يونس ود الدكيم إلى الخليفة ٢٤ جمادي الآخر ١٣٠٤هـ وهي مما أستشهد بها الدكتور إحسان.

مادح أيضاً ولابد أن لا يخلو من إخوان معه، وقد قيل أن مديحهم طيب ولما خبرونا بهم واستأذنونا أيضاً في أن يمدحوا سيد الجميع المهدي عليه السلام وخليفته، فمنعناهم وقلنا لهم لا نسمع مدحم حتى تأتي إشارة من السيادة في الأجازة من عدمها»، ومن أطرف ما كتب له الخليفة يحذر رعيته من استعمال الألقاب كالشيخ والسيد والفكى (وكان المهدي قد سبقه إلى النهي عن هذا، قوله من منشور له) [١].

«ومن ذلك بعض ألفاظ جرت على ألسن عامة الناس ولم يتنبهوا لما احتوت عليه من الخطأ والألباس فمنها قولهم الفكي فلان، في معرض التعظيم ورفع الشأن لمن له إلمام بمعرفة شيء من الدين، مع أن لفظه الفكي أصلها الانفكاك الذي وصف الله به أهل الكفر والإشراك في قوله تعالى قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ البينة: ١. وأحسب هذا مما كان يمخرق به بعض الكتاب يتقربون به إلى سيدهم. ولقد جاءوا شيئاً إدا بحمل كلام الله العزيز على غير وجهه.

هذا ولم يكن عهد الخليفة خالياً كل الخلو ممن نالوا حظاً من العربية وقد كان كلا الطاهر والمجذوب وابنه محمد بإقليم البحر الأحمر يراسلان الخليفة. ولكن أسلوبهما كما قدمت فرع من النثر الصوفي الديني، وهو على جودته لا يدخل في هذا الباب الذي بدأناه بأسلوب المناشير. وقد كان أشهر علماء العربية بأم درمان الشيخ الحسين الزهرا وكان شاعراً ناثراً مقدماً في الفقه وكان يمني نفسه بمكان عظيم في دولة المهدية. وإذ لم

---

(١) مما استشهد به الدكتور إحسان – دار المحفوظات.

يجد عند الخليفة ما كان يتوق إليه عمل مع من كانوا يتآمرون به فأوقعه ذلك في سخطه فقتله. وقد كتب زميلي الفاضل الدكتور إحسان كلمة جيدة عن الحسين الزهرا، ولم ينشرها بعد، فأترك درس آثاره له ريثما يفرغ منه.

غير أني لا ملك نفسي من أن أنبِّه على أن أسلوبه قد كان معقداً متكلفاً، لا يسمو إلى ما استشهدنا به، وما لم نقدر على الاستشهاد به من النثر الصوفي الجيد السابق لعهد المهدية والمعاصر له، وليس فيه من الحماسة والتدفق ما في أسلوب المهدي، ولا فيه من الوضوح العامي البحت، ما في رسائل الخليفة وعماله وحسبنا أن نستشهد ههنا بشيء من منشوره الطويل في مدح المهدي الذي طبعه الخليفة عام ١٣٠٤ هجرية[1] قال: «الحمد لله الوالي الكريم، والصلاة على سيدنا محمد مع التسليم. أما بعد، فلما نادت به ألسن الأكوان بظهور المهدي المنتظر، وتقرر ما نادت به عند ذي كل لب خلا عن الفتن ما بطن منها وما ظهر، وجاء الحق وزهق الباطل، وجنده في سجن المهالك انحصر، وتفاقم الأمر واعتاص الظاهر على من سبر واختبر، وكم من آية يمرون عليها معرضين وما لهم بها معتبر، وذلك بمشيئة من يفعل ما يشاء ولا بأس ولا ضرر، هؤلاء إلى الجنة وهؤلاء إلى النار، ولا مبالاة كما ورد بذلك الخبر، أردت أن أملي من البينات الجلية، ما ينبئ من ألقى السمع وهو شهيد عن نزر من علامات المهدية، ليكون قياساً إلى ما تضمنته من الأمور الخفية، عند عميان البرية، حذراً من وقوعهم في مهاوي البلية، فإن الهداية إلى الصراط المستقيم، خلق من أخلاق البر الرحيم، وسيرة الأنبياء، وطريقة

(١) طبع بمطبعة الحجر وسماه: الأيات البينات في ظهور مهدي آخر الزمان وغاية الغايات.

الأصفياء، تهالك فيها الأوائل والأواخر، وأما طواعن وجوهها الحظائر والستائر، وعليها أسست المهدية، ودعت إلى مواردها الشهية كل البرية، فقلت وأنا العبد المفتقر إلى البر الرحيم، الحسين المشهور بزهرا سليل إبراهيم أول ما أملاه المالك، على العبد من ذلك، حمداً لله على آلائه، وشكره على نعمائه، وإن كان لا يلحقها الحد، ولا ينتهي عند آخرها العد، ومن أكبرها ظهور القائم بأمر الله، والخاتم لأولياء الله، الإمام المهدي المنتظر ابن السيد عبد الله».

وهكذا تستمر الرسالة في ما شاء لها صاحبها من تكلف وتقعر. وبعد فعسى أن يكون هذا القدر الموجز الذي قدمناه كافياً في تصوير ما كانت عليه اتجاهات النثر السوداني وأطواره، منذ أن كان مُعْرقاً في العامية عند بداية القرن التاسع عشر إلى أن غلبت عليه العامية مرة أخرى في نهاية المهدية. وشهد فيما بين ذلك طورين في غاية الأهمية، طور الجزالة والسلامة في الموالد والمناقب الصوفية الدينية، وطور المذهب الصحفي الديني في منشورات المهدي وإنذاراته. والآن نأخذ في الحديث عن اتجاهات منذ أول القرن العشرين إلى يومنا هذا، فنذكر من ذلك طرفاً في كلمتنا المقبلة إن شاء الله.

النثر المعاصر

استعان الحكم الثنائي منذ بداية عهده بالصحافة. وكانت للقسم البريطاني من الجيش الفاتح وهو بدنقلة صحيفة تصدر بالإنجليزية، تسمى Dongola News ثم أنشئت بالخرطوم صحيفة كالرسمية يشرف عليها قلم المخابرات، تسمى جريدة السودان، وكان محرروها الأوائل من المهاجرة المستوطنين مصر. ومن آثار هذه الجريدة، مما بأيدينا الآن، كتيب صغير يدعى «حكاية الملك ازادبخت» كان ينشر فيها في مقالات متتابعة، ثم طبعته مطبعتها عام ١٩٠٤م، فكان أول كتاب عربي، طبع في الخرطوم في هذا القرن. وهو قصة معربة عن الهند ستانية ادعى تعريبها مدير المخابرات حينئذ البكباشي آمرى. وأستبعد أن يكون تولى من ذلك شيئاً سوى التفسير الأول لمحررية الألى ذكرنا، والراجح أنهم هم الذين تولوا الصياغة، لخلو الكتاب في جملة من أخطاء الأعاجم.

وقد اختفت جريدة السودان وخلفتها جرائد أُخر شبه رسمية، كالحضارة، وملتقى النهرين، وآل تحرير هاتين آخر الأمر إلى نفر من السودانيين ممن خرجتهم كلية غوردون، أمثال الشيخ حسين شريف، والشيخ أحمد عثمان القاضي. وكان هؤلاء يكتبون في نطاق محدود، وقد يتناولون بعض أغراض الأدب. وكان أسلوبهم في جملته سليماً حسناً لا يخرج عن التقليد لما كان في الصحف المصرية آنئذٍ.

ويستحسن أن نلم إلماماً يسيراً بالتغيير الذي جعلت تحدثه كلية غوردون في الفكر السوداني بما كانت تخرجه كل عام من جيل مثقف جديد. وكان تأسيسها عام ١٩٠٢م.

واستحضر لها رهط من خيرة الأساتذة المصريين، نذكر منهم: الشيخ الجداوي، والشيخ الخضري، والشيخ عبد الرءوف سلام، وأحسب أنه كانت للشيخ محمد عبده يد في اختيارهم. والتحق بقسم اللغة العربية للمعلمين أول الأمر طلبة سودانيون نجباء، منهم من حفظ القرآن ومبادئ العربية في «الخلوة» فأفادوا كثيراً من علم أساتذتهم. وتولى هؤلاء التدريس في كلية غوردون بعد أن رجع الجداوي وصحبه إلى مصر، وبعد أن رأت الحكومة أن تبعد النفوذ المصري عقيب عام ١٩٢٤م وقد عرف من هؤلاء الخريجين الممتازين جماعة بالشعر والنثر الجيد، كالشيخ محمد المجذوب جلال الدين، والشيخ البناء، والشيخ عبد الله عبد الرحمن.

وهذان أشهر بالشعر، إلا أن الشيخ عبد الله عبد الرحمن قد ألف كتاباً حسناً اسمه، «العربية في السودان» ، نفدت طبعته الآن والحصول عليه عسر. وقد ضمنه كثيراً من عادات السودان، ووازن فيها بين كثير من الألفاظ الدارجة وأصولها الفصيحة. والكتاب لو أعيد طبعه، مما لا يستغني عنه الباحث الآن. والشيخ محمد المجذوب مقل، إلا أن نثره جيد بليغ أصيل في بابه، ولا يزال يوافينا به من حين إلى حين، من المذياع وفي مجلة المعهد العلمي، كقوله مثلاً: «أيها الطالب اعلم أن الأدب من موجبات الوصال والقرب، ومن حرم الأدب بعيد ما تدانى في زعمه، واقترب في وهمه. ومن فضيلة الأدب أنه يلحق من لا نسب له بذوي الأنساب، فيصير الوضيع رفيعاً والدنيء شريفاً، قال الشاعر:

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك محموده عن النسب

ويرحم الله من قال:

يـا قـوم عـلام تفـاخركم   بعظـام رمـت في الـترب
مـن كـان أبـوه خلائقـه   وحجـاه، فـأعرق منتسب
جدي هو جدي في علمـي   وأبي أني للفحـــش أبي

فعليكم أيها الأبناء، بالتمسك بالآداب الرفيعة فإن ملاك الشيمة الأدب، وهو ثمرة العلم، فمن لم يستفد من علمه أدباً وتهذيباً فلا خير في عمله، وهو في حكم الجاهل، واعلم أيها الطالب وفقك الله أن لكل طائفة أدباً خاصاً، فللصانع أدب، وللتاجر أدب، وللحاكم أدب، وللرعية أدب، وللعالم أدب، وللمتعلم أدب، ومقامنا يقتضي أن نورد نبذة في أدب المتعلم.

أدب المتعلم:

من آدابه أن يكون طاهر القلب، متخلياً عن رذائل الأخلاق، وذميم الصفات، إذ إن العلم عبادة القلب. فكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح إلا بالتطهير من الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة القلب وعمارته إلا بعد طهارته من الأخلاق الخبيثة والأوصاف النجسة. قال ﷺ: «بني الدين على النظافة» – وهو كذلك ظاهراً وباطناً، ولذلك يشير الإمام الشافعي ﷺ يقول:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي   فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور   ونور الله لا يُهدى لعاصي

وقال ابن مسعود ﷺ «ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم نور يقذفه الله في القلب، وهو العلم الذي يورث خشية الله، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فاطر: ٢٨. وقالوا إن العلم ما أفاد خشية العليم. ومن آداب طالب العلم الديني أن يقلل علائقه من الدنيا، فإن العلائق شاغلة وصارمة (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) ولذلك قالوا إن العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كُلَّك. ومن آدابه ألا يتكبر على المعلم ولا يتأمر عليه، بل يلقي إليه زمام أمره، ويذعن لنصائحه، ويطلب الشرف بخدمته، فقد ورد في الأثر (ليس من أخلاق المؤمن التملق إلا في طلب العلم) ومن آدابه ألا يكثر على معلمه السؤال، ولا يعنته في الجواب، ولا يأتيه بالأغلوطات والألغاز، ولا يلح عليه إذا أعرض عن الإجابة، ولا يأخذ بثوبه إذا نهض ولا يسأله وهو ذاهب في طريق، بل يتركه حتى يستقر به المجلس، ويجب أن يصحب أستاذه بالأمانة، ولا يفشين له سراً، ولا يغتابن عنده أحداً، وعلى الطالب أن يعظم أستاذه ويوقره ما دام يحفظ أمر الله، فإذا كانت له حاجة، فليسبق القوم إلى خدمته. ومن آداب المتعلم أن يجلس أمام معلمه جلسة وقار وخشية، مطرق الرأس، غاض الطرف، وألا يرفع صوته فوق صوته، وأن يظهر اهتمامه بالإصغاء إليه، ويحذر العبث والضحك في مجلس الدرس. واعلموا أن الطالب تنم أخلاقه عن أخلاق بيته وبيئته، فربما يكون شريفاً ذا أدب بين الناس، فيصمه هو بعدم تشبهه، ولو أنصف أباه الفاضل الأديب لتخلق بأخلاقه. قال الشاعر:

بأبه اقتدى عديٌّ في الكرم ومن يشابه أبه فما ظلم

وأعيذكم أيها الطلاب من التشبه بغير المسلمين فيما لا يقره الإسلام ولا يرتضيه، فقد قال ﷺ (من تشبه بقوم فهو منهم) وكونوا بين الناس في حركاتكم وسكناتكم على هيئة حسنة، وسمت جميل، يدل كل من يراكم على أنكم طلبة العلم، ورجال الدين المهيئون في المستقبل لهداية الخلق إلى الصراط المستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم[1].

وهذا أسلوب جزل، ينبئ عن ملكة قوية، وفيه نفس من روح النثر الديني الصوفي الذي تحدثنا عنه آنفاً.

وتلت سنة ١٩٢٤م فترة هامة جداً في تاريخ السودان. ذلك بأن الشعور القومي المحدث ابتدأ يزداد من حينئذٍ، وقد يكون مما أعان على ذلك، أن الحاكمين جعلوا يستخدمون السودانيين في بعض مصالح الدولة، التي كان يستخدم فيها سواهم من قبل. فانفتح لهم بذلك مجال جديد حرك فيهم دواعي الطموح، واستحثهم إلى النضال، وإلى هذا الرأي ذهب ترمنجهام في كتابه الإسلام في السودان، وفيه جانب من الصواب كما ترى، ولكنه يحتاج إلى تعقيب ليس هنا موضعه.

وقد اتفق مع هذا الشعور القومي المحدث، أن الحاكم كان يضرب نوعاً من الحجاب على السودان، فلم يبعث منه إلى الدراسة في الخارج أحداً إلا بأخرة، وهؤلاء

---

(١) مجلة المعهد العلمي لأم درمان ٣ جمادي الأول ١٣٧٨هـ.

أرسلوا إلى بيروت لا إلى مصر، فكأن الحجاب من جهتها قد كان أشد. فزاد هذا كله من تعلق الجيل الجديد بالخارج، ولا سيما مصر، شأن ابن آدم في كل ما يحرم منه.

ثم أن هذا الجيل الجديد كان ينظر من حوله إلى قدوة يستمد منها مثله العليا، فلا يجد إلا المشايخ والحكام. وكان المشايخ في نظره من عداد الآباء، يمثلون السودان القديم وعلمهم يمثل قيماً لن تلبث أمام تيار المدنية الحديث، وقد كان يرى أنه طرف منه. وكان الحكام في العاصمة شيئاً قصياً، يطول بالكبرياء، وينأى بالعقيدة واللون والعنصر. اللهم إلا أولئك النفر منه الذين درَّسوه في كلية غوردن فقد كان يراهم رسلاً لمدنية الغرب يسمع منهم وحي كولردج وأديسون ووردسورث وشو وولز. ولكن هؤلاء كانت صلته بهم تنقطع عقب تخرجه في الكثير الغالب ويبقى ذكرهم في فؤاده فيختلط بهذا التطلع الشديد الذي كان يحسه في أغوار نفسه إلى عالم الخارج.

والتفت الجيل الجديد إلى مصر، يروم منها ما أعياه في السودان. وكانت صحافتها آنئذ قد بلغت شأواً بعيداً من الجودة، وكان يكتب فيها رجال كان ينظر الشرق العربي كله إليهم بعين الإكبار، ويلتمس من عندهم المعرفة والمثل العليا.

وكان من هؤلاء مجددون يتحدثون عن كولردج ووردسورث وشلي ونظرائهم في الآداب الأوربية المختلفة. وكانوا مدارس، فتعلقوا بأشدها تجديداً، وأقدرها على الأخذ والاقتباس من أوروبا. ثم نشأت منهم طائفة آنست من نفسها شوقاً إلى التعبير، وتطلعاً إلى أن تبرز بين أبناء وطنها بروز كتاب مصر في مصر، وأن ترود لهم من المثل العليا ما هم في أشد الحاجة إليه، وأن تعين بفعلها هذا على زيادة الشعور القومي،

وإظهار «الشخصية السودانية» وحسبك شاهداً على هذا ما كان يكتب في النهضة والفجر عن القومية والشعور القومي والثقافة السودانية وهلم جرا. وكان أكثر هذه الطائفة شباناً تواقين، يطيف بهم روح من التطلع، أشبه شيء بأجواء النسيب، أطلاله من حاضرهم، وظعائنه من آمالهم العاطية إلى مجهول «الخارج، ومجهول المدينة، ومجهول المستقبل القومي، والمستقبل الفردي، ومجهول الحب، الذي يقرأون عنه في الكتب ويحسون أمانيه في القلوب، ويلتمسونه فلا يجدونه، ثم يصورونه لأنفسهم تصويراً، ويخادعون أفئدتهم بما صوروه. ومن الشواهد على هذا ما تجده في قصة، البرتكان» وقصة «إلى القرية» و«الباسم» و«بعد التجربة»[1] من أجواء المأساة والرثاء للمخفقين والمخفقات في نضال الهوى والحياة. هذا وما زال بهم هذا القلق والتطلع حتى أصدروا مجلة النهضة سنة ١٩٣١م. واختفت هذه بعد موت محررها محمد عباس أبي الريش عام ١٩٣٢م فأصدروا بعدها مجلة الفجر عام ١٩٣٤-ثم قام المؤتمر، فانصرفوا إلى السياسة العملية والصحافة الحزبية كلهم أجمعون.

وقد كنت أظن أول ما بدأت أدرسهم أنهم لم يكونوا إلا محاكين لما قرأوه في الصحافة المصرية، ومؤلفات كُتّابها المحدثين. وأن هؤلاء أنفسهم لم يكونوا إلا محاكين لنماذج من أدب الغرب. وخيل إليّ أنهم ما عمدوا إلى هذه المحاكاة إلا التماساً للعزاء من دنيا اليأس التي كانت تحيط بهم، أو طلباً للظهور في دنيا جيلهم الصغير، وكان يرجح هذا الظن عندي ما هو معروف من أعراضهم عن الكتابة الأدبية الخالصة بعد قيام

---

(١) كل هذه القصص نشرت في مجلة الفجر ١٩٣٤ - ١٩٣٥م.

السياسة والأحزاب. وقلت عسى أن كان قلقهم كله، وتطلعهم كله، نفثة من نفثات الجهاد الوطني في ذلك الزمان، في ميدانه الكبير والصغير. أما الكبير فالتماس الوسائل مع الذين كانوا يعملون في السياسة إلى مشاركة الحاكمين في الحكم ثم الانفراد به فيما بعد، وأما الصغير فما كان يسعى له خدم الدولة، كما هو شأنهم في كل زمان ومكان من طلب الجاه والسلطان. وقلت عسى أن كان تطلعهم إلى دنيا الخارج يحفزهم إلى التماس من طريق الأدب سبيلاً إلى تلك الكبرياء التي كان يشرف عليهم من عليائها الأجانب الحاكمون.

ولكن بعد طول النظر استقر عندي أنهم ربما ألموا بأطراف جميع ذلك، غير أنهم كانوا في جوهرهم أولي مثل عليا، شجعاناً حقاً، لهم حظ عظيم من الأصالة، أرادوا البيان عن ذوات أنفسهم، وعن آمال بلادهم، فالتمسوه في الأدب، ووفقوا فيه إلى شيء من الإجادة، ثم التمسوه في السياسة، فشغلتهم شواغلها. ووفق كثير منهم توفيقاً عظيماً فيها، وقد كان منهم من يحاول الرجعة إلى الأدب أحياناً. ولكن هؤلاء لم يستقم لهم منه في الكرة الآخرة ما كان استقام أول الأمر. وكتابة «موت دنيا» للأستاذ محمد أحمد محجوب والدكتور عبد الحليم محمد مما يدل على ذلك.

وخيرة كتاب ذلك الجيل عندي سوى الشعراء منهم أربعة، هم: محمد أحمد محجوب، وأحمد يوسف هاشم، ومحمد عشري الصديق، وأخوه عبد الله عشري، ومن هؤلاء محجوب ومحمد عشري، أديبان كبيران لا ريب، لعلهما كانا (في بعض ما كتباه) من آصل أدباء زمانهما، في الشرق العربي كله. وقد وعد عبد الله عشري وعداً حسناً أول

عهده بالكتابة في مجلة النهضة. وكان يساجل محجوباً وعرفات، ويستعمل أسلوب الجدل في مساجلاته، وربما ضرب المثل الساخر ليظهر بالحجة ويقهر الخصم، كقوله يرد على عرفات ما اتهمه به من السفسطة «مضى الصديق عرفات يهاجم صديقه العشري عندما تساءل الأخير عما يقصده الأديب محجوب من كلمة جديد. فرماه بالإفراط في الاهتمام بمعاني الكلمات، وسمى محاولته هذه جدلاً في الجزئيات والشكليات أوما ترجمه بكلمة Hair Splitting الإنجليزية. وهذه ملاحظة عقيمة واعتراض باطل فلو أن الأديب عرفات قرأ سطراً واحداً في تاريخ الفلسفة لعلم أن أكبر مشكلاتها قائمة على تعاريف الكلمات ومعانيها، ويكفيه أن يعلم أن كلمة الله قد أحدثت من الجدل ما ضاقت عنه مجلدات ومجلدات، وأن كلمة جديد نسبية ولا يجوز لها الإطلاق-ليتأمل الأديب هذا القول-ولا نريد منه جزاءً ولا شكورا-نسبية بمعنى أنه يمكنني أن أضع على رأس حماري قبعة وأسيره في الطرقات وأكون بذلك قد أتيت جديداً أو شيئاً مبتكراً-وفي ابتكاري هذا (إلى حد قوله) وقول الصديق (محجوب) يكون معنى الحياة...»[1].

وقد تنبه الدكتور عبد المجيد عابدين إلى هذه الصفة في أسلوب الأستاذ عبد الله عشري، إذ قال بمعرض الحديث عنه في كتابه تاريخ الثقافة العربية في السودان[2].

---

(١) مجلة النهضة ١٤/ ٣/ ١/ ١٩٣٢/ ٨.

(٢) تأريخ الثقافة العربية في السودان للدكتور عبد المجيد عابدين مصر ١٩٥٣/ ٢٥٧.

«وكان لعبد الله عشري، أخي محمد عشري، جولات في الكتابة، وكان لها فضل في تهيئة الناس لقبول الثقافة الجديدة. وهو يتميز عن سائر رواد الكتابة بالأسلوب الفكه في ضرب الأمثال، وتوضيح المسائل، ولعله يحاكي في ذلك بعض كتاب مصر والغرب» إلا أني أحسب الدكتور عابدين قد وهم شيئاً إذ سمى هذا الأسلوب فكهاً وإن كان قد قيد هذه التسمية، إذ هو جدلي ساخر كما ترى، ولا أحسب أن عبد الله عشري حاكى فيه كاتباً مصرياً أو عربياً، وإنما هي طريقة الجدل، وكان مزاجه أميل إليها. وأعانه على ذلك اطلاعه في الجدليات. وفي هذه المقالة نفسها تجده يدل على من كان يساجلهم بما كان يعلمه في هذا الباب، وربما بلغ إلى استجهالهم؛ وذلك قوله «ولديّ في مكتبتي الآن نسخة من كتاب Dotter's Beginner's Logic يمكن أن ترجع إليه ؛ وتكتفي بأول فصل عن Valldity and truth أو (استقامة المنطق والحقيقة) حتى تزيل ما غش بصرك وبصيرتك من دخان كثيف قد أفسد علينا وعليك فهم الأمور على وجهها. والسفسطة يا صاح من هذا النوع من الحوار أي أنها مستقيمة جداً في طريقتها المنطقية؛ غير أن الفروض التي تبنى عليها لا تمت إلى الحقيقة بصلة ما. أما حوار الأديب عشري فلا هو بالسفسطة ولا هو بشق الشعرة إلى اثنين وإني أنصح لك أن ترجع إلى هاتين الكلمتين وتتفهم معانيها جيداً قبل أن تحاول كتابة سطر واحد في الفلسفة أو النقد[1]».

---

(1) النهضة ١٤/ ١٩٣٢/٨-٩ ووقع في الطبع خطأ هو «سطراً واحداً» بالنصب والتنوين وليس من الإنصاف للكاتب أن ننبه في مثل هذه العجالة.

وقد غلب عبد الله عشري مزاجه الجدلي، فطلب علوم النظر، وجعل يكتب فيها من حين إلى حين في مجلة الفجر، ثم انقطع عن ذلك كله واختلفت به ظروف الحياة من بعد وانتهى آخر الأمر إلى التدريس- وأحسب أنه لو ثبت على التحصيل لبرز تبريزاً شديداً في فنه.

هذا وأحمد يوسف هاشم ممن انصرفوا إلى الصحافة الإخبارية السياسية بعد قيام المؤتمر. وقد نجح فيها نجاحاً باهراً. وتوفي في سنة ١٩٥٨م رحمه الله. وهو من خريجي معهد أم درمان العلمي. واحسبه تعلم شيئاً من الإنجليزية أخريات أيامه.

وأسلوبه في جملته سلس. وكان من أقدر الناس على عرض القضايا وتلخيصها. وقد يكون أساسه المعهدي مما أعانه في ذلك. ولا أرى أنه كان من المتعلقين بالأدب ذاته، يطلبون درسه ونقده وعرضه والإضافة إليه مما تتفتق عنه أذهانهم، وإنما كان رجلاً ذا ملكة. وقد علم آخر الأمر أين يضعها. وله مما كتبه في الفجر مما يجري الشاهد على بعض ما كنا قدمناه آنفاً من محاولات ذلك الجيل إلى الإفصاح عن الشعور القومي وإبراز الشخصية السودانية قوله[1]: «والمثل الثاني يضرب اليوم للناس أبلغ الأمثال لعلهم يتفكرون، فقد كان للملك سعد الجعلي ابن أخ اغتصب بنتا من الأحرار فدفنه حياً. وفي هذا شيء غير قليل في ظاهره، مما يسمونه الوحشية، ولكن من يقدر الشرف، ويقدر الكرامة ثم هو يقدر بعد ذلك استنان سنة سيئة في أمة لم تعرف سوء الخلق. من يقدر هذا كله يعلم أن هذا الجزاء أملته نفس صارمة، ولكنها أبية حذرة، ويعلم أن مثل

---

(١) الفجر ٥٣٥-١٦/ ١١/ ١٩٣٤م.

هذا الفعل المنكر لن يتكرر ما دام هذا نوع الجزاء. فليس الملك الذي فعل ذلك بابن أخيه يتردد في إيقاع شر منه على غيره. وهذا المثل يعطينا صورة واضحة لحرص أسلافنا على شرفهم. فلم يكن عندهم الزنا واغتصاب الفتيات بالأمر الهين كحالنا اليوم، إذ تخرج البنت جهرة من أهليها وعيونهم تنظر، وقلوبهم تتفطر، ولا يستطيعون ردها، كما أنهم لا يجدون وسيلة لاجتناب ذلك، إلا أن يطيلوا أسوار المنازل، ويجعلوا الفتاة في مكان أحرز من السجن، فلا يصل إليها شيء حتى الهواء إلا بقدر الضرورة. فليفهم أرباب نظرية السفور ذلك، وليسعوا لإيجاد الجو الصالح للفتاة خارج الأسوار، وليؤمنوا عليها من أنفسهم، ومتى تم لهم ذلك فإني قمين لهم بتحقيق نظريتهم، وهي لا شك كانت محققة عندنا في الماضي قبل أن تكون في كثير من الأمم السافرة اليوم-فلقد كان السفور عندما كانت الأخلاق، ولقد كان السفور عندما كانت جريمة الزنا أكبر من جريمة القتل. وها قد ضرب لنا الملك سعد مثلاً بالغاً: أجل ضرب لنا أروع مثل. وهكذا أسلافنا خلفوا لنا فضائل خلقية في كل ناحية من النواحي، ولكن خلائفهم لم يحرصوا عليها، وتوالى التفريط إلى أن خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً، فاللهم أجعلنا من التائبين العاملين لخير هذه البلاد وإعادة مجدها) أهـ، وفي هذا كما ترى شاهد لبعض ما أشرنا إليه من الروح القومي المتطلع إلا أن في الإسلوب غلواً ولا يسلم من وهي مع ما يبدو عليه من طابع الدراسة العربية الدينية الخالصة. كقوله لا يجدون وسيلة لاجتناب، في السياق الذي أوردها فيه، فإن فيها ركزاً من ركاكة وأحسب ذلك من أنها عبارة

مترجمة من الإنجليزية، غربها الكاتب بين عباراته العربية ويشبهها قوله «وأنا قمين لهم بتحقيق نظريتهم، ومراده وأنا زعيم لهم، والجار والمجرور في آخر الجملة فيهما الركاكة التي ذكرنا وقوله. «فلا يصل إليها حتى الهواء إلا بقدر الضرورة فليفهم أرباب نظرية السفور ذلك، وموضع الضرورة قلق لا أراه عربياً جيداً ولا يلائم موقع لام الأمر بعده ولو بنى الكاتب جملة قرآنية وقال: فلا يصل إليها الهواء إلا بقدر فليفهم أرباب السفور، لكان خيراً له. وإنما أتى رحمه الله من أنه كان يريد ليتعاطى بعض هذه الأساليب التي كان يكثر منها زملاؤه، فتتعثر عليه. وقد درب عليها فيما بعد، وأعانه الذكاء فاستقام له أسلوب صحفي خطابي بليغ.

هذا، وقبل الحديث عن محجوب ومحمد عشري، لابد من كلمة عن عرفات محمد عبد الله، إذ كان محرر الفجر، وكان يكتب من قبل في النهضة، واشتهر في جيله بالأدب والبيان، ولا يزال كثيرون يقدمونه على محجوب وعشري وغيرهما. وأشهد قد أطلت النظر في افتتاحياته في الفجر وما كتبه في النهضة، فثبت عندي أنه ليس كالذي اشتهر من ذكره وأن فضيلته حقاً أنه كان رجلاً مثابراً، بذل جهداً كريماً عظيماً في إخراج الفجر، وموافاة القراء بها مرتين من كل شهر. ولا أشك أنه قد كان مع هذه المثابرة ذا حظ وافر من الكيس ومرونة الخلق وغيرهما من الطباع التي تطلبها صناعة التحرير. إلا أن البيان قد كان أضعف ملكاته. وما عليك إلا أن تنظر في كلمته عن الحزبية مثلاً فقد أطال فيها ولم يقل شيئاً، وكان همه أن يحترس، ولم يكن لديه من القول ما يحترس منه، وإنما كان يحسن لوناً من الحكمة الصحفية نحو قوله «وهو حر في إبداء رأيه ما دام

لا يطعن في الأشخاص ولا يعرض بأسماء معينة ولمن يرى غير رأيه أن يرد عليه»»، وقوله: «وليس من رأينا أن نقول للغير طلقوا عقولكم ولا نطلب إلى أحد أن يقيد نفسه برأي غيره. بل إذا رأينا الأمر قد جاوز حدوده المعقولة وأفسد على الناس أعمالهم وتفكيرهم فإننا نقول «تعالوا إلى كلمة سواء» . وكان له مع هذا زخرف من الصناعة اللفظية، يصعد فيه أحياناً ويسف كثيراً-كقوله في مطلع هذه الكلمة:

«إياك نعبد وإياك نستعين، هذا معقل أشب، والسبيل إليه وعر ولهذا كنا نتحاشى اقتحامه إبعاداً للمكروه» ونؤجله لعل الله يكفي المؤمنين القتال.. ولكن لهذا المعقل حراساً حريصين على بقائه، لا يدعون عابراً يمضي في سبيله بدون أن يناوشوه وإن لم يمسهم، بل وإن لم يحم حول حماهم»[1] وكقوله: «ولكن حرس الحزبية وحماة معقلها لا ينظرون إلى شيء إلا بمنظارها، ولا يقيسون عملاً عاماً أو خاصاً إلا بميزانها المائل وكيلها المطفف وها هم أولاء بيننا في كل مكان-لا نعرفهم بسيماهم، بل قد لا يعرفون أنفسهم-يفسدون كل حسن وجميل، ويفسد عليهم ما يرون ويسمعون «وقوله نتحاشى لا يلائم الشائك والوعر والصواب نفزع أو نخاف أو نخشى وقوله، حريصين على بقائه، ينقض ما ذهب إليه من قوة التصوير حين شبه الحزبية بمعقل أشب، إذ المعقل يلاذ به ويُحتمى، وقد يُذاد دونه ولكن لا يقال فيه «يحرص على بقائه» وقوله «لا نعرفهم بسيماهم» سهم مشو يدلك على ذلك ما اضطر إليه الكاتب من

---

(١) الفجر: يونية ١٩٣٤م.

المبالغة، والوجه (تعرفهم بسيماهم) اللهم إلا أن يكون الكاتب قد خشي أن يسأل عنه، فكان يلزمه حينئذ بياناً آخر.

وكثيراً ما كان عرفات ينحو منحى الخطابة في نقده الاجتماعي، فيبالغ في اللفظ، ويغفل عن المعنى غفلة تامة، وقد استوقفني له في هذا الباب، كلمة افتتاحية نقد فيها النساء في مولد النبي ﷺ، فأسف جداً، إذ جعل يبالغ في نعت التبرج بما لم يكن مثله في زمانه ولا بعد زمانه، وذلك قوله[1]، وأما المرأة اليوم فقد شف الثوب عما تحته، ونم عما ظهر وبطن، وجافى القدمين، وداعب الركبتين، ولاذ بالروادف والثدي والخصور، كأنه فستان من آخر المودات الباريسية. أما الألوان فلم تترك لقوس قزح المسكين ما يختال به. وأما النعال فقد أبدت الحناء وغير الحناء. وبرزت الأكف والسواعد تعرض خواتمها وأساورها وحناءها جميعاً. ويأبى الثوب إلا أن «يملص»[2] كل دقيقة عن موضع اللثام، فيبدو الحزام، والأقراط، وما زان الرأس والجبين، أما الوجوه فقد صقلت واترعت بماء الشباب، دون ماء الحياء. وأما العيون فأعوذ بالله منها ووقاني الله فتكها. وأما القدود والنهود فقد سخرت مما قاله الشعراء الأقدمون فبدأ إذا قيس بها تافهاً ضعيفاً. ومن هن يا قوم؟ لسن نساء هبطن من المريخ ولا من حور الجنة شردن في هذا اليوم ليمتعن العين ويشبعن العاطفة في هذه الزائلة. لسن بضاعة من اليابان جاءت تسام بأبخس الأثمان. إذن من هن؟

---

(١) المصدر نفسه ١/ ٧/ ١٩٣٤م.

(٢) كلمة عامية معناها يتساقط وأصلها عربي فصيح.

أتسألني أيها القارئ؟ إن كنت تجهل فإني أجيبك: إنهن زوجاتنا وأخواتنا وابناتنا إنهن لحمنا ودمنا. إنهن اللواتي يحملن ذرياتنا ويرضعن رجال المستقبل لبان العظمة والخلود. يا للرجال. ولكني أخالك تسألني أيها القارئ أين البعولة والخئولة والأعمام؟ أين الأبوة والأخوة أين فتيان الحمى».

وهذه خطابة جوفاء في متنها وهي كثيرة، وفيها مع ذلك شوب من سوقية وآخرها ينظر إلى قول شوقي:

مقدونيا والمسلمون عشيرة　　　كيف الخئولة فيك والأعمام

ولا أخال أن أحداً يتحدث عمن يزعم أنهن نساؤه، فيعدد ما عدده الكاتب من نعوت التبرج ونحوه مما هو أدخل في باب الرفث المورى منه في باب العظة والتذكير. ولا نريد بعد أن نطيل في الاستشهاد. فحسب عرفات من الفضيلة ما قدمناه من أنه كان محرراً مجتهداً بذل في إخراج الفجر جهداً لن يفتأ السودان يذكره له ويحمده من أجله طوال الليالي فجزاه الله خيراً كثيراً ورحمه رحمة واسعة.

المحجوب ومحمد عشري

لو جمع ما كتبه المحجوب ومحمد عشري في الفجر والنهضة كله ما عدا كتاباً واحداً من الحجم المتوسط. ومع ذلك أزعم أن بعض كتابتهما من جيد ما عرفه عصرهما في الشرق العربي، ولا شك إنها أجود ما عرفه السودان من الأدب الحديث حتى فجر الاستقلال، وأكثرها من قَري المقالة والبحث القصير. وللمحجوب ذرء من قصص. وأبدأ بالمحجوب واستهل حديثي عنه بهذا النقد الذي تعقبه به الأستاذ مختار رحمه الله في أحد أعداد الفجر[1]- «وأطلب إليك أيها الناقد أن تعتمد على المنطق أكثر من اعتمادك على الأسلوب الخطابي، إذ الناقد أحوج إلى المنطق منه إلى الخطابة وجودة الأسلوب، والشاهد هنا ما اتهم به الأستاذ مختار محجوب من الإسراف في الخطابة، وقد سبقه إلى هذه التهمة الأستاذ عبد الله عشري في المقالات التي استشهدنا بشيء منها آنفاً.

وقد أعاد هذه التهمة نفسها الدكتور عبد المجيد عابدين في كتابه تاريخ الثقافة العربية[2] في السودان، ولكن في سياق أليق. وذلك «قوله مهما يكن فإن النزعة المثالية من سمات نقد المحجوب العام. ولعل هذا يفسر لنا كذلك بم كثرت في كتابة محجوب الألفاظ والمصطلحات ذوات المدلولات العامة التي تطرب لها الآذان وتتيه في بيدائها العقول، مثل: المثل العليا، والحق، والخير، والجمال والقومية، والرجعية، والحياة، وقيمة الحياة والملكات الفلسفية، والعلمية، والفنية إلخ....»

---

(١) الفجر ١٧٨/ ١٦/ ٧/ ١٩٣٤م

(٢) تاريخ الثقافة العربية ٣٤٣-٣٤٤.

وعندي أن هذا النقد، مع ما فيه من وجوه الإصابة، مخطئ في جملته، وقد يصرف عن حقيقة ما اشتمل عليه أدب المحجوب من الأصالة الفنية والفكرية. أما الأصالة الفنية فما كان يحاوله من صياغة جديدة تجمع بين فصاحة العربية وترسل الإنجليزية وأما الأصالة الفكرية فما كان يلتمسه من المثل العليا بمجتمعه السوداني الناشئ في الأدب والسياسة والفن. وإليك من الشواهد هذه المقالة التي كتبها في النهضة:

أوائل عهده بالكتابة، وعنوانها، الشعور القومي وحاجتنا إليه،[1] قال: «ليس أدعى إلى الألم والابتئاس من فقدان الشعور القومي في بلد تتوفر فيه كل دواعيه، وهذا البلد هو الإقليم المنكود الذي نسكنه، وبيننا علاقات الموقع الجغرافي والجنس والدين واللغة، وليس لنا من الشعور ما يجعلنا نحس هذه الوحدة ونحترمها، وذلك لأسباب سنذكرها بعد تعريف القومية والشعور بها، وذكر خصائصها ومميزاتها.

القومية معناها شعور الناس بما يربطهم من أواصر المنفعة المشتركة التي تجعل منهم كتلة ذات كيان واحد إذا قيسوا إلى غيرهم من البشر، وهي ترتكز في الصميم على اتحاد اللغات والمميزات الجنسية، وعلى الاتفاق في الدين والمثل العليا التي تسعى المجموعة إلى تحقيقها، وعلى الإخلاص والإحساس اللذين لا يمكن وصفهما لصعوبة التعبير عنهما. وليس معنى هذا أن لا سبيل إلى القومية إلا باجتماع كل هذه الدوافع التي إذا توفر بعضها أغنى عن البعض الآخر. وأما الشعور بالقومية فمعناه اتحاد النفوس وتضافرها لتحقيق تلك المصالح المشتركة وتقوية الروابط الجنسية ورفع عماد الدين

---

(١) النهضة ٢٤ فبراير ١٩٣١م.

والدفاع عنه واتحاد المقاصد حتى تكون الأمة ذات اتجاه مخصوص ونهج معلوم يسعى الكل لأن يسلكه. والشعور القومي هو العصبية التي يحسها ابن الوطن نحو أخيه، والغيرة التي تأخذه عندما يذكر وطنه بين المواطن، ويود أن يراه في طليعتها، وهذا بعينه ما نفقده نحن. فلا تجدنا نعطف إلا على ما ليس له صلة بنا مباشرة أو غير مباشرة، ولا تجدنا نسعى لخير المشترك أو نساعد العاملين عل الوصول إليه، ناهيك عن الاشتراك والعمل لإيجاده.

والشعور القومي مثل شعور المرء بذاتيته وجهاده المستمر لأن ينال من المجد ما يقنع كبرياءه ويكفل خلوده، وكما أن الفرد إذا فقد الشعور بذاتيته لا يمكنه أن يحصل على ما من شأنه أن يزيد في قدره أن يرفع مكانه في الهيئة الاجتماعية ويجعل لاسمه جلالاً تحسه القلوب قبل الآذان، فكذلك الأمة إذا فقدت الشعور بذاتيتها لا تستطيع أن تحقق أحلامها الجميلة من مجد وغنى وحرية وعلو كعب في العلوم والفنون والآداب. وأن من يُلقي نظرة عاجلة على ملخص تاريخ الأمم يرى أن الشعور بالقومية هو حجر الزاوية لكل مجد، قديماً كان هذا المجد أو حديثاً، لأنه يبعث الشعوب من رقدتها ويحفزها إلى جليل الأعمال، فهل نحن إلى هذا الشعور سائرون وبقوته مندفعون إلى تحقيق آمالنا والتخلص من آلامنا التي نشعر بها أفراداً ونقدرها، ولكن حتى الساعة لم نشعر بها أفراداً ونقدرها، ولكن حتى الساعة لم نشعر بها كجماعة، وذلك لفقدان التفاهم بيننا، ولانعدام الثقة في بعضنا البعض، ولتخوفنا حتى من أنفسنا وانكماشنا وتضاؤلنا أمام الأوهام التي يرسمها خيالنا، وتصدقها عقولنا لما

فطرت عليه من خَوَر هو ربيب الجو الذي ولدت فيه، فتراع نفوسنا، ويقضى على جهودنا في مهدها.

إن المرء ليجد في ذكرياته الماضية أسطع البراهين لكثير من قضايا الحياة التي صادفها، وإني لأذكر يوم شعرت بفقداننا الشعور القومي وحاجتنا الماسة إليه، وذلك حيث[1] كنت طالباً بالكلية وسأل أحد المدرسين وهو اسكتلندي الجنس، سأل أحد زملائي عن أنواع المقاييس، فقال الزميل: إن هنالك نوعين إنجليزي وفرنسي، وعندها ثار الأستاذ صارخاً، «قل بريطانيا.. فهناك اسكتلندا تشارك انجلترا وتتمتع فيها بكل الحقوق والواجبات، وقد بدت عليه علامات الانفعال والغضب وهو ذلك الوديع الدائم الابتسام الطلق المحيا. وسألت نفسي آنذاك ولماذا كل هذه الثورة وما هي إلا كلمة طالب لا تغير نظام الدنيا السياسي ولن تبدله، وقد تكشف عن جهل الطالب بما يقول. ولكن سرعان ما أجابني هاتف نفسي على أن شعور الأستاذ بقوميته وما في نفسه من الوطنية الصادقة التي وضعها وهو طفل قبل أن يعرف كلمة الوطنية جعله ينظر إلى هذه الكلمة نظرة الاعتبار كأنها قيلت في البرلمان وهو يتولى الدفاع عن وطنه. فقدرت الأستاذ وتمنيت لزملائي ونفسي مثل هذا الشعور النبيل ولكن هيهات. فالفرق بين البلدين بعيد المدى. في اسكتلندا روح وثابة وأناس يشعرون بما لهم من مجد وحق في الحياة يجب أن يتمتعوا به كما يتمتع سائر البشر الأحرار، ولاسكتلندا ذكرياتها الخالدة وأبطالها الخالدون الذين تنقش عظمة جهودهم في قلوب الأطفال-ولا أقول عقولهم-

---

(١) الصواب (حين) ولعل التاء هنا خطا مطبعي.

وهم لم يعدوا الرابعة، أما نحن فلا روح تثب للعلا ولا أبطال نلقن بطولتهم للأطفال، لأن أبطالنا محكوم عليهم بالخمول والنسيان، وذلك لتعدد القبائل وتحزبها ولما بينها من الصراع الذي لا يجعل إحداهن تعترف بفضل رجال الأخرى، وإن كان الجميع أبطال وطن واحد وفخر وطن واحد.

والدليل على تعدد القبائل عندنا وتشعبها نسوقه أيضاً من ذكريات الدراسة، حيث سئلنا عن قبائلنا، وكان عدد طلبة الفرقة ثلاثين، وعدد القبائل عشرين. وليس أدل على كثرة القبائل والبطون من هذا المثل. وليست الكثرة ما نشكو فقط، ولكن العصبية البليدة العمياء والشعور الذي لا يسوق إلا إلى التهلكة ودمار القومية هو ما يؤذي النفوس التي تود خير هذا البلد وتتمنى أن ترى بين أبنائه من الشعور ما يربطهم ويجعلهم يتركون عصبية القبائل ويبدلونها بعصبية الوطن والعمل لخيره المشترك.

والشباب المثقف بدأ يتجاهل هذه الفوارق وكاد يدمرها، ولكن هل للشباب أن يشعر بحقٍّ وجوده ووجود وطنه ويجعل همه الوحيد بث الشعور القومي بين كل طبقات الشعب وجدير بنا أن نتساءل عن: الطرق التي يمكن بها بث الشعور القومي ونوضحها على قدر الإمكان حتى يمكن العمل بها والوصول إلى القصد المنشود.

ما أصعب بث الشعور القومي وما أثبته وما أبقاه إذا غرس في النفوس! فهو قوة لا تهب مجاناً لعِظَمِها، وباقية خالدة ككل شيء نفيس يتفانى صاحبه في ادخاره وصيانته، وسمو الغاية يبرر الوسيلة مهما صعبت. ونحن كشعب مجاهد في الحياة ليبني نفسه وإن كان في بداية السير، يجدر بنا أن نعرف "الطرق التي يمكن بها بث الشعور

القومي في مجموعتنا (وننفذها) على الرغم من صعوبتها، لأن فقدان الشعور القومي يقف حجر عثرة في سبيل المشاريع "عامة"، والأعمال الحرة تقوم على عطف الشعب عليها، وتعضيده للعاملين فيها والقائمين بأمرها وإلا ماتت في مهدها، وقبل أن تتم حول الرضاع. الدليل على ذلك فشل شبابنا في الأعمال الحرة لفقدانهم النصر، وتفوق اليونان والطليان لما يمطر عليهم من عطف جالياتهم أولاً ومن عطف ضعفائنا ثانياً.

وأول الطرق لبث الشعور القومي هو أن نعمد إلى عصبية القبائل الحالية ونحولها إلى عصبية وطنية شاملة. والطريق في ذلك أن نلقن أطفالنا في قصص بكر يحل مكان الغيلان والسحار- نلقنهم بطولة: عثمان دقنة، وعبد الله ولد سعد، وعبد الرحمن النجومي، ومحمد أحمد المهدي، وغيرهم، على وجه السواء دون أية تفرقة بين القبائل والبطون. ولعلمهم أن هؤلاء جميعاً يكونون مجداً مشتركاً هو مجد الوطن، وعظمة خالدة كان الدين الذي نعتنقه جميعاً باعثها، وبذلك تجعلهم يؤمنون بدين الوطنية وسلطانها، ويحسون فائدة الدين ويمجدونه، وحبذا لو نظمت قصص هؤلاء الأبطال في شعر عربي يحس جلاله الشباب الناهض المثقف وفي غناء سوداني يفهمه الجمهور والأطفال وثاني الطرق أن نبدأ بكتابة تاريخ بلادنا من أقدم العصور حتى الوقت الحاضر، لأن الأمة إذا جهلت تاريخها لا يتيسر لها الشعور بقوميتها، ولا بأس أن يكتب هذا التاريخ بكل ما فيه من مفاخر وآلام، لأن المفاخر لها عملها في بث الشعور القومي، وللآلام التي يرزح الشعب ويئن تحت عبئها مفعولها في إثارة النفوس والتوحيد بينها وعبء هذا التاريخ يقع على أبناء هذا البلد، أما ما يكتبه الدخلاء

ويصفه المغرضون فلا يساعد بحال من الأحوال على بث الشعور القومي إن لم يعمل على قتله، وليلاحظ من يكتبون التأريخ مسألة القبائل، وليحكموا عليها بزوال السلطان وليكن تأريخهم مما يساعد على بث الشعور القومي ولا غرابة في ذلك، لأن إبراهام لنكولن محرر أمريكا الثاني يقول:- إن تأريخ واشنطون عن أمريكا من أهم الكتب التي ساعدتني على بناء حياتي. ولعل التأريخ الذي نقول بضرورة وضعه يخلق من شباب هذه الأمة كثيرين ممن يقتفون أثر لكولن العظيم.

والطريق الثالث لبث الشعور القومي اللغة التي نتكلمها ونكتبها، ومعنى ذلك أن نشعر بعظمتها ونمجدها وأن نضعها فوق سائر اللغات، ونجهد أنفسنا في تعلمها وإتقانها، لنعبر بها عن أفكارنا وعواطفنا ونعرب عن تمنياتنا وأملنا، واللغة خير رابطة بين أبناء الولد الواحد، تجعلهم يحسون ويفهمون ما يجوس في صدور بعضهم البعض، ويكونون فكرة عن حالهم وحال بلادهم، وإذا قلنا اللغة تبادر إلى الأذهان ما يخلقه الأدباء من شعر ومقالات وقصص وروايات وغناء، وهذه بدورها إذا تعهدها القائمون بها ساعدت على بث الشعور القومي.

والشاعر الذي يصور الحياة حسب ما يتخيلها العقل السوداني، وتحسها النفس السودانية، ويفيض في تصوير الآلام والآمال التي يحسها الأفراد في وحدتهم، ولم تجمع عليها كلمتهم كجماعة يقوم بين قومه مقام الوسيط، يوحد مشاعرهم ويجعل منهم وحدة متينة البناء.

والقصص والغناء خير الطرق لبث الشعور القومي، لأن القصة والغناء تميل إليهما دهماء الشعوب وخاصتها على السواء، لأن كلا منهما يسيطر على العواطف والمشاعر. وهي التي إذا أثيرت وتحركت فلا راد لثورتها.

والقصة عندنا لا زالت في البداية ومن يكتبونها لا يجهدون أنفسهم للتغلغل في صميم الحياة السودانية ودرس الأوساط حتى يخرجوا لنا قصصاً عليه طابع بلادنا ومسحة عواطفنا وأفكارنا. وأني لا أرى ضرورة إصلاحها والأخذ بناصيتها حتى نأخذ اتجاهاً محموداً، وأما الأغاني فلم يفرغ أصحابها بعد من التغزل في النهود والأرداف. وجزى الله خليل فرح كل خير عنا فقد وضع الأساس للأغاني القومية التي تبعث الوطنية في اثنتين من قصائده التي يرددها الأطفال والشبان على السواء، ولو أخذ شعراء الأغاني عندنا على هذا النهج لكان ذلك خير لهم وأهدى إلى السنن القويم.

وللتعليم على وجه الإجمال أثره في بث الشعور القومي، والمدارس في الأمم الراقية تقوم بقسطها الأوفر لبث شعور الوطنية الصادقة في نفوس طلبتها، حتى أن الطالب يترك المدرسة وهو على استعداد لأن يدخل معترك الحياة كرجل يشعر بواجبه نحو وطنه ومواطنيه، وإني لأشعر بالحاجة الماسة لتغيير برامج التعليم في مدارسنا وعلى الأخص الأولية منها، ولكن هذا الموضوع يحتاج إلى بحث على حده.

وفي النهاية أراني مدفوعاً في شديد من الأسف وعميق من الحزن لأن أقول-ليس أدعى إلى الألم والابتئاس من فقدان الشعور القومي في بلد توفر فيه كل دواعيه.

وهذه كلمة بينة المعنى كما ترى، ألف فيها الكاتب بين التبويب والربط الذي تبني عليه المقالة الإنجليزية، والازدواج والمقابلة اللذين يؤثرهما البيان العربي، وعسى أن يكون قد نظر إلى طريقة الدكتور طه حسين. إلا أن هذه لا تقلد. وما أحسب أحداً يروم ذلك إلا يخفق، إذ للدكتور طه، أطال الله بقاءه، من ملكة تصريف اللغة العربية ما انفرد به وحده وأعانه العلم الغزير وتوفيق الله الباهر. فمن ينظر بعين الحذق- كما أحسبُ محجوباً فعل- إنما يروم أن يقبس نفساً من روحه، لا أن يحاكيه ويباريه، وذلك لا ينافي الأصالة بل لعله مما يعين عليها ويهيئ أسبابها.

أما التبويب والربط فترى شاهدهما في إقدام محجوب على أصل الموضوع الذي يريد علاجه من أول جملة بدأ بها، وذلك قوله (ليس أدعى إلى الألم والابتئاس من فقدان الشعور القومي في بلد تتوفر فيه كل دواعيه) ثم تفريعه من هذا الأصل سائر ما خلص إليه من أفكار. فذكر أولاً القومية وحاول تعريفها. ثم ذكر الشعور القومي وحاول تعريفه، وضرب له مثلاً بالشعور الفردي الذي يغري صاحبه بالطموح ويزين له الآمال، ثم ضرب مثلاً آخر من ذكريات المدرسة واستشهد بأحد رسل المدينة من أولئك الأساتذة الأجانب الذين كان لهم في محجوب وجيله أثر عظيم عميق كما قدمنا. ثم اتخذ من هذا المثل سبيلاً إلى الدعوة بالشعور القومي، فذكر أولاً ما قد يحول دون تعميمها من الصعاب، كالعصبية القبلية، والتحاسد الناشئ من قلق الثقة، ومظنة التفوق الفكري والخلقي في العناصر الأجنبية، ثم التمس الوسائل إلى قهر هذه الصعاب، فذكر من ذلك أن يعنى المربون بسير الأبطال السودانيين، وأن يدرسوا

التأريخ السوداني تدريساً يشعر النشئ بعزتهم وعزة آبائهم. وأن يلقوهم من العربية ما تستقيم به ألسنتهم ويمكنهم من الاطلاع على تراثها الجليل. ثم أهاب بالادب وأهل الفن أن يجعلوا مادة أدبهم وفنهم من البيئة السودانية ويضمنوها ما يبغونها من باهر الآمال وما يشكونه من حاضر بؤسها وآلامها، ثم خلص من هذا كله إلى انتقاد برامج التعليم كلها والتنبيه على ضعف المدارس الأولية بخاصة. واختتم ما بدأ به من أنه ليس أدعى إلى الألم والابتئاس من فقدان الشعور القومي في بلد تتوفر فيه كل دواعيه.

ولا يخفى أن هذا التبويب مقتبس من نظام المقالة الإنجليزية التي يسمونها Controversial Essay ولا أشك أن محجوباً نظر إلى هذا النظام فحاكاه أكثر من نظره إلى أمثلة المقالة الحديثة في الأدب المصري، لأن أساتذته في الكلية كانوا يكثرون من تدريب الطلبة فيه، ثم إن احتذاء النموذج الإنجليزي أوضح ههنا من سواه. وما عليك إلا أن تتأمل الفقرات لتجد مصداق ذلك. فإن بينها من الترابط اللفظي فضلاً عن التناسب المعنوي ما يشبه ترابط الفقرات في المقالات الإنجليزية شبهاً شديداً. على أنه ينبغي أن أنبه ههنا أن المحجوب خالف ما توصى به القواعد الإنجليزية من استعمال الإيجاب في المطالع وتجنب النفي إذا استهل «بليس» وأحسب أن الذي دعاه إلى هذه المخالفة، طلب المقابلة والمطابقة.

وذلك يجعل استهلاله أقوى في العربية. وله مثل هذا التصرف كثير، مما يقوي ما نسبناه إليه من الصلابة الفنية، من ذلك استطراده ليقص قصة الأستاذ الإنجليزي، والاستطراد كما نعلم من خالص أساليب العربية، قليل في المقالات الإنجليزية. ويجري

هذا المجرى التفاته إلى المغنين السودانيين ليعرض بهم، ويفضل عليهم معاصرهم خليل فرح. ثم اكتفاؤه من هذا ببرامج التعليم بجملة واحدة جارحة وعد أن يفرع عنها الحديث في مقالة مستأنفة. وهذا كما ترى أسلوب الاقتضاب العربي. ولم يف بما وعد به إلا بعد عام في جريدة الفجر «مثل عليا- ٤٧١» ويكثر المحجوب في جمله من الاسم الموصول وإذا الشرطية، كقوله-القومية معناها شعور الناس بما يربطهم من أواصر المنفعة المشتركة التي تجعل منهم كتلة ذات كيان واحد إذا قيسوا... إلخ، - وكقوله، ولكن العصبية البليدة العمياء والشعور الذي لا يسوق إلا إلى التهلكة ودمار القومية هو ما يؤذي النفوس التي تود خير هذا البلد) وعندي أن منشأ هذا الإكثار ما كان يرغب إليه من تطويل الجملة العربية، على النحو الذي يكون في الإنجليزية. وقد عددت للمحجوب في هذه المقالة جملاً أطالها طولاً مفرطاً. من ذلك قوله-(وكما أن الفرد إذا فقد الشعور بذاتيته لا يمكن أن يحصل على ما من شأنه أن يزيد من قدره أو يرفع مكانه في الهيئة الاجتماعية ويحيل لاسمه جلالا تحسه القلوب قبل الآذان، فكذلك الأمة إذا فقدت الشعور بذاتيتها لا تستطيع أن تحقق أحلامها الجميلة من مجد وغنى وحرية وعلو كعب في العلوم والآداب والفنون) وكقوله- : (نحن كشعب يجاهد في الحياة ليبني نفسه وإن كان في بداية السير يجدر بنا أن نعرف الطرق التي يمكن بها بث الشعور القومي في مجموعتنا وننفذها على الرغم من صعوبتها لأن فقدان الشعور القومي يقف حجر عثرة في سبيل المشاريع العامة). وقد يعمد المحجوب إلى الازدواج، والطباق ليطبع جمله الطوال بطابع الفصاحة العربية، وكثيراً ما يوفق في ذلك، غير أنه

كثيراً ما يتعثر عليه اللفظ، ويوقعه في أصناف من التداخل ومماطلة التراكيب. ومما يزيده وقوعاً في ذلك، إنه يندفع اندفاعاً ويستعجل الإبداع قبل أن يتروى له. خذ مثلاً قوله «وهذا البلد هو الإقليم المنكود الذي نسكنه وبيننا علاقات الموقع الجغرافي والجنس والدين واللغة وليس لنا من الشعور ما يجعلنا نحس هذه الوحدة ونحترمها ـ وذلك لأسباب إلخ، ألا تجد في قوله، علاقات الموقع الجغرافي، نوعاً من الإحالة إذ لا يتصور السكنى في بلد مع الخروج عن جغرافيته؟ أم تراه استعجل إلى ذكر طرف من تعريفه للشعور القومي بعد واو الحال، قبل أن يصل إلى موضع التعريف وهو في الفقرة التالية؟ أم لا تحس أنه إنما استعجل ليوفق إلى طباق كالذي أصابه في الجملة الأولى وكأنه أعجب بها فأراد أن يشفعها بأخت تشبهها.

وأحسبه لو أخذ في ذكر الدواعي «بعد قوله» في بلد تتوفر فيه كل دواعيه، كان أصوب له وأبعد عما وقع فيه من اضطراب. وخذ مثالاً آخر قوله:- وأما الشعور بالقومية فمعناه اتحاد النفوس وتضافرها لتحقيق المصالح المشتركة وتقوية الرابطة الجنسية ورفع عماد الدين والدفاع عنه، والشاهد هنا أنه قد أقحم الدين وقد سبق له ان ذكره في تعريف القومية، وأخال أنه في اندفاعه كاد ينساه هنا، وهو بمعرض الحديث عن الشعور القومي، ثم تذكره، فلم يجد بداً من أن يرفع له عماداً- فأحدث ذلك ماتراه من قلق وتداخل في التراكيب ولعله اكتفى بأن يقول مثلاً:-ولتحقيق المصالح المشتركة وتقوية الروابط المختلفة، لكان أقوم:

ومثال ثالث قوله: «ولكن حتى الساعة لم نشعر بها كجماعة، وذلك لفقدان التفاهم بيننا ولانعدام الثقة في بعضنا البعض، ولتخوفنا حتى من أنفسنا وانكماشنا أمام الأوهام التي رسمها خيالنا وتصدقها عقولنا لما فطرت عليه من خور وهو ربيب الجو الذي ولدت فيه فتراع نفوسنا ويقضى على جهودنا في مهدها» والشاهد هنا قوله أنهم يخافون من أنفسهم ثم أن أنفسهم تخاف من الخيالات التي تصورها عقولهم وقوله أن عقولهم فطرت على الخور ثم قوله من بعد أن هذا الخور ربيب البيئة. ومراده واضح. ولكن ألفاظه فيها دور يلم بالتناقض-وأحسبك فطنت إلى طلبه المطابقة، واقترانه بعض التعابير الإنجليزية نحو afraid of his own mind "lack of mutual understanding".

وأظنه لحن في قوله «ولانعدام الثقة في بعضنا البعض، والصواب «بينا»-وقد يجوز أن يلتمس لهذا تأويل فترفع البعض على أنها فاعل الثقة ويدخل عليك أيضاً أن الناس ينصبونها وكأنهم يترجمون بذلك العبارة الإنجليزية each other وهذا لا يكاد يؤول إلا بأن تجعل الجار والمجرور في موضع فاعل- وقد قرأ بعضهم ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون في سورة الجاثية[1]. على أن قولهم، انعدام الثقة، نفسه ليس بعربي جيد ونعود بعد إلى ما كنا فيه.

وعندي أن استعجال محجوب واندفاعه جنيا على أسلوبه كثيراً، إذ جعلاه يحتمل زيداً رابياً من المعاظلة والتداخل ونحوهما من المستكره، ولكن كل هذا يغفره أنه كان

---

(١) قراءة أبي جعفر وليس من السبعة.

يرود مسلكاً جديداً صعباً. والأصالة مما يصحبها التعبير ومما تستعصى على ملكة رائضها. وقد خلص له أسلوب مفصح مع ما فيه من هنات، متصل النفس، قوي الروح، ينبئ عن كائن حي وراءه. وفي ذلك من التوفيق شيء كثير.

ولا أحتاج بعد إلى أن أبين لك موضع الأصالة الفكرية فيما استشهد به، فالكاتب كما نرى يرغب في أن يكون للسودان أدب وتأريخ وفن كما للبلاد الأخرى. ويستحث الناس إلى ذلك وهو لا يعمم كلامه تعميماً يتيه في بيدائه الفكر كما زعم بعض نقاده، وإنما يعرض قضايا واضحة ويدعو إلى أمور جلية بينة-وقد عمد في المقالات التي تلت هذه المقالة (في جريدة الفجر) إلى تفصيل في نقد برامج التعليم وإشارات لا زال العاملون في ميدانه يأخذون بها، ولا ريب أن كثيراً من هؤلاء من جيل محجوب، وقد تأثروا به وأحسبهم أيضاً قد أثروا فيه-لأن ذلك الجيل كان يكثر من تبادل الآراء في نادي الخريجين ويقيم لها المحاضرات والمناظرات. وليس التعميم والنفس الخطابي عندي مما يعاب به الكاتب الذي يرود وجهاً جديداً من الأفكار والمثل العليا. إذ هو بمنزلة المبتدئ، وقلما يتأتى لمبتدئ أن يضع أمر كاملاً مفصلاً. وإنما يتيسر ذلك لمن يتلوه ويتمم ما بدأه. ولمحجوب في هذه المقالة وغيرها من نفاذ البصيرة، ما سبق به إلى كثير من الآراء التي أخذبها بعده. من ذلك دعوته الملحة في مقالاته في الفجر إلى أن ينظر الأدباء والمفكرون إلى نماذج الأدب الشعبي وحاضر بيئتهم فيلتمسوا منه الإلهام[1] ومن ذلك حثه على تعليم المرأة، حتى تشارك الرجل في مضمار الثقافة ليتهذب هو

---

[1] الفجر: ٣٨٥.

وترق أخلاقه[1] ومن ذلك نصحه لمعاصريه أن يرجعوا إلى التراث العربي، لتقوى مادتهم في العربية، وملكتهم على البيان، قال في مقالة له بعنوان الفوضى الأدبية والاجتماعية (الفجر-٤٩)

لا بد لنا من وضع المقاييس الأدبية والاجتماعية لنعرف بها قيم الرجال. وما دمنا في طفولتنا وليس لنا من الآثار والتقاليد الثابتة ما نتخذه مقياساً صادقاً، فأمامنا الأمم المتحضرة فلنعمد إلى دراسة مقاييسها وتعديلها لتناسب أخلاقنا وعاداتنا ولغتنا ونتخذها قسطاساً لرجالنا، فيبين الزعيم والأديب والعالم، ويظهر الجاهل ويخجل من جهله ويعمل على رفعه. على أن هنا مقاييس تستوى فيها جميع الأمم وفي جميع الأزمنة فلا يكون زعيما من يحتاج إلى من يهديه سواء السبيل، ولا يكون زعيما من لا أخلاق له، ولا علم، ولا جاه، ولا مقدرة على الخطابة، ولا قوة سحرية يسيطر بها على النفوس، وليس لديه من صفات اللين والشدة ما يحتاجه في ساعات اللين وساعات الشدة، وليس له من مضاء العزيمة ورباطة الجاش ما يقابل الصعاب فيغلبها، ولم يوهب من نفاذ البصر ما يجعله يسبق الحوادث فيأخذ لها الحيطة. ولا يكون أديباً من يجهل، اللغة التي يكتب بها يجهل نحوها وصرفها وفقهها. ولا يكون أديباً من لا مادة عنده من الأدب ولا ملكة يتعرف بها ما يقرؤه من صفحات الكتب أو صفحة الزمن، ولم يقف على فنون ا لكتابة قديمها وحديثها، ويعرف كيف تفعل الألفاظ إذا أحكم وضعها وكيف تسكر المعاني الشعرية النفوس وتلعب بها.

---

(١)المصدر نفسه ٤٢٣.

ولا يكون شاعراً من لا يعرف من الشعر غير البحور والأوزان والفاعل المرفوع والجار والمجرور لأن الشعر يتطلب ذوقاً وحاسة فنية دقيقة، ويتطلب تذوقاً للجمال في البشر وفي العمار وفي الصور وفي الطبيعة. مصدر كل جمال وأصل كل إلهام».

ولمحجوب أيضاً سوى مقالاته الاجتماعية مقالات كثيرة في النقد الأدبي، منها ما نقد به القدماء، ومنها ما نقد به المعاصرين. وقد كان في هذا الضرب الثاني أمتن وآصل وله في الضرب الأول لفتات حسنة كالذي زعمه من براعة أبي الطيب في الغزل، وقد كان الثعالبي وبعض معاصريه يرون ذلك، ولا شك أن المتنبي قد سلمت له أبيات حسنة في النسيب وما يجري مجراه من شعر الذكرى والتأمل، ولكني أرى أن بين النسيب وحذق الغزل بوناً على كثرة ما يشتبه أمرهما ويكادان يلتقيان.

ومن أمثلة نقد المحجوب لمعاصريه مقالاته التي نقد بها صالح عبد القادر والمهندس رحمه الله، فما قاله في صالح عبد القادر (الفجر ١٧)، لا يجيد صالح مطالع قصائده والظاهر أنه لا يعير الناحية الفنية أدنى التفات، وكل ما يراعيه هو أن يودعه ما يجول بخاطره من الأفكار، ويجيش بصدره من العواطف. فهو شاعر بطبيعته متوفرة فيه دلائل الشاعرية، ولكنه لا يتقن قواعد فنه وحظه من الصناعة غير كبير، والشاعر لا يسمى شاعراً إلا إذا كان ملهماً صناعاً وناقداً لشعره قبل أن ينقده الناس. والمثل الذي نسوقه للتدليل على ما ذهبنا إليه قصيدته الثانية في شكوى الدهر التي مطلعها:

لا تلمنـــى فـــتكن متهمـــي إن عقـــلي لم يكـــن مـــتهما
ولم الـــدهر عـــلى تقـــصيره أخطأ الـدهر وعمـدا ظلـما
ليتـــه يعلـــم مـــا أعلمـــه حيث لا يجعل حظى نـدما

ولا يصح أن يكون هذا مطلع قصيدة والشاعر لم يـأت بالبيـت الأول إلا ليثبـت كلمة «لا تلمني» ويردفها في البيت الثاني بكلمة «لم الدهر» والبيت لا معنى له ولا طائل وراءه، وما هي علاقة اللوم باتهام العقل. ومن قال لصالح أن عقله مـتهم بـالجنون-لا سمح الله- وعندي لو مزج البيت الأول بالثاني وكون منهما مطلعاً لأجاد وذلـك كـأن يقول ما معناه:

«لا لا تلمني وإنما لمُ الدهر فهو المسيء وهو المقصر الظالم» .

وعندي أن محجوباً قد أصاب فيما زعمه من ضعف البيـت ولكنـه أخطـأ تأويـل معناه، إذ الشاعر يريد أن يقول إني امرؤ ذو حجاً فإن لمتني فكأنك تنسبني إلى الغباء.

ثم قال المحجوب:-وهذه القصيدة فيها أفكار سـامية وعواطـف نبيلـة ولكنهـا مختلة النظام منفرطة العقد تشعر باضطراب في أداء الصور الشعرية وتلاحقهـا بعـضها البعض وهذا الاضطراب دليل الإهمال وعدم مراعاة الفن وأصول الصناعة، وعنـدي أن شاعرنا يفكر في حاله وحالة قومه، وكلمة جاشت بخاطره فكرة، أو بنفـسه عاطفـة نظمها في بيت، ويظل كذلك إلى أن يجتمع له العدد الكافي من الأبيات لتكوين قـصيدة فيضعها دون أيّ ترتيب أو مراعاة للوحدة، وإلا فما معنى قوله:

أيها الدهر أنا من معشر | حكموا الرأي وهزوا القلما
فلكم أزعجني منتقما | ولكم وجه نحوى تهما
فاسأل العالم عنا إننا | أمة كنا وكانوا خدما

الخطاب الأول للدهر والشاعر يخبر الدهر أنه من قوم حكموا الرأى وهزوا القلم وتحكيم الرأي وهز القلم من عنصر واحد ولو كنت مكان الشاعر لقلت «حكموا السيف وهزوا القلما» لأجمع في أمتي مقدرتي الحرب والسلم. ثم قل لي بربك أيها الشاعر – ولا أقول أيها القارئ –لأن ذلك إحراج له، على من يعود ضمير الفاعل في أزعجني، أيعود على الدهر والدهر مخاطب بينما الفاعل ضمير مستتر جوازاً تقديره هو. وقد تعقب الأستاذ مختار رحمه الله محجوباً في هذا فأخذ عليه جعله القلم رمزاً للسلم وأراه أصاب، إذ الأقلام مما تثار به الحروب ويقاتل به. وأخذ عليه أيضاً نقده موضع الضمير أزعجني وانتصف للشاعر بأنه قد يكون التفت. ولهذا وجه، إلا أن فيما –قاله المحجوب من استشعار الضعف في «أزعجني» صواباً كثيراً أحسب الضعف في البيت كله لا في موضع الضمير وحده.

والحسن في نقد محجوب هذا وضوحه وما تحسه فيه من الرفق بمن ينقده على كثرة ما يأخذه عليه مخطئاً أو مصيباً، وعندي أن الناقد متى تحامل أو أبغض ما ينقده زل، إذ الناقد كالقاضي، يلزمه الرفق وأن يدرأ الحدود بالشبهات وهل نحن إلا بشر. وما نقد به المحجوب شعر المهندس رحمه الله قوله[1]، ولهذا أعذر الزميل الشاعر أن مال

---

(١) الفجر: ١٠٥-١٠٦.

إلى هذه التسمية وأثرت عليه ثقافته المكتسبة وطغت على طبعه المصري الأكيد، فجاء شعره إنجليزي الطابع عربي اللفظ والتركيب، فالملاح التائه يذكرني بالبحري العتيق Ancient Mariner لكولردج، وغرفة الشاعر، ورجوع الهارب، ومخدع مغنية، وصخرة الملتقى، وعاصفة في جمجمة، والأمسية الحزينة، والشاطئ المهجور كل تلك عناوين تصح أن تكون إنجليزية الأصل ولن يرجع الباحث في دواوين الشعر الإنجليزية بالخيبة إذا حاول أن ينقب فيها وعن أمثالها وإذا لم يصدق شاعرنا طبيعة وطنه فقد صدق ثقافته وكان أثرها ظاهراً في شعره ملفتاً للنظر وكفاه ذلك مغنماً، فهذه باكورة ستلحق بها كميات وافرة من الإنتاج الفني، وسوف نسمع شاعرنا في دواوينه المقبلة متحدثاً عن جمال مصر متسماً بطبيعة أهلها الفكهة المرحة، وقبل أن أنظر في ألفاظ الشاعر ومعانيه أقول كلمة عن فنه، وأول ما يلاحظه ناقد الشعر تنوع موسيقاه، فإن وجد أوتاراً عديدة يوقع على كل منها نغماً من ألحان تلك النفس المرحة، المحزونة والمستبشرة اليائسة أطمأن إلى أن الشاعر فنان صاحب موسيقا وسحر. وبعد أن جبت خلال ديوان الملاح التائه ورأيت أني أطالع على الدوام نغماً واحداً مطرداً حدثتني نفسي أن أقوم بإحصائية للديوان، فوجدت أن ست عشرة قصيدة من بحر واحد، والديوان فيه أربع وثلاثون قصيدة وأني لمن يطمعون أن يكون الأستاذ علي محمود طه وأضرابه من شباب مصر المثقف في طليعة من يقضون على السامة والملل في الشعر ويدخلون إليه من فنون الشعر الغربي ما يكسبه مسحة فنية، وليس في ذلك عيب، لأن الفن إنساني مشاع لا يقتصر على بلد دون آخر، ولكن العيب أن نتحدث عن مواضيع غربية ومشكلات بلادنا ومناظرها في حاجة لم يفصل فيها بثاقب رأيه ويصورها بريشته وألفاظه، وأني ألفت نظر

الشاعر لأن يكون صاحب أوضاع في شعره وأن ينوع أنغامه حتى يجيء شعره كالحياة جمالاً وروعة وشيوعاً وليس بعيداً أن يكون صاحب طابع ممتاز وهو مهندس لا يقنع بتصميم واحد في البناء بل ينوع في تصمياته، وليته استلهم وحي الهندسة في شعره)).

وبعد هذا الإجمال أخذ المحجوب في شيء من التفصيل فقال ((أسوبه في معظم قصائده إن لم أقل كلها فخم ولفظه جزل وتعابيره قوية، غير أنه يطيل حيث لا داعي للإطالة، وإن توفرت في شعره القوة والجمال فإنه يفقد الاقتصاد. وإذا جنح إلى توفر هذه الخاصية في شعره فسيمحو هذه الضجة والضوضاء العالية التي يشعر بها القارئ في ديوانه، وقليل من الشعراء من تتيسر له هذه الفخامة في الأسلوب.

أنها ذكرياتُ أمسيةٍ مرَّتْ وأيام غبطةٍ وسرور
وبريءُ ابتسامةٍ فم الأيام كانت عزاء قلبٍ كسير
قد طواها النسيان إلا شعاعاً غمر الروح في بقية نور
رمق ذاك من أشعة شمسٍ علقت في غروبها بالصخور
أخذ القلب لمحها من وراء الموج يجتاز لجة الديجور
فتبينت في الشواطئ حولي أثراً في غرامي المهجور

وأنه يعبد النور لأنه خاطف كلمحات فكره، ويهيم إلى البحر لأنه عميق كنفسه، واسع كعطفه. ولا يخطئ المرء في أية قصيدة من قصائده لمح النور وهدير الموج وظلمة الليل وتألق النجوم في قبة السماء الزرقاء، ولعل عنده حباً على ساحل البحر يحبب إليه ذكر البحر، ولعل له أملاً في الغيب وتطلعاً إلى المجهول يحبب له النور لينير له الطريق.

شعره مليْء بالتأملات وأثر العقل واضح فيه وذلك لنشأته العلمية ولكن وجوده في مكان تجول فيه حبات القلوب وعلى الأرض تسير وتنقله بين ظلمات البشر في بلد هي ملتقى جمال الشرق والغرب، أكسبه عاطفة قوية تظهر جنباً إلى جنب مع أثره العقلي. ولهذا شعره جماع للعاطفة والعقل. وفي قصيدته (الله والشاعر) التي ناب فيها عن البشر ورفع ضراعتهم إلى الملكوت الأعلى وأعرب عن آلامهم وآمالهم ومرئياتهم وتخيلاتهم كثير من الأمثلة إلخ.

وفي هذا النقد- كما ترى- كثير من دقة الملاحظة وصحة الذوق. وفيه ما قدمته من الرفق بالشاعر، وقد بلغ الرفق هنا إلى الإعجاب والود، ولا أرى ما يراه المحجوب من الجزالة في المثل الذي ذكره وفي غيره، ولكن فيه جرساً حسناً، وسماحة، وفيه بعد ظلال من الغموض والحيرة. يعجبني المعنى الذي أراده الشاعر من قولة:-

فتبت في الشواطئ حولي   أثراً من غرامنا المأثور

غير أنني لا أستحسن قوله، أثراً وقوله «المأثور» على ما فيهما من روم الجناس. ذلك بأن الأثر المتبين إنما يقال للجنة والشاعر في معرض الحديث عن الذكرى وهي أمر معنوي ولعله نظر إلى قول أبي نواس:

مساحب من جر الزقاق على الثرى

وآثار ريحان جنى ويابس

وبعد فحسبنا هذا القدر الموجز عن محجوب وأدبه ونأخذ في الحديث عن محمد عشري في كلمتنا المقبلة إن شاء الله.

محمد عشري

لمحمد عشري رؤية وعناية بما يكتبه. ولكن ليس له اندفاع محجوب ولا حرارته وبريقه وخير ما يستشهد له به مقالتان جيدتان كتبهما في نقد المازني. ففيهما كل عناصر ملكته من ريث، وصقل للألفاظ، واستقلال في الرأي، مع روح أشبه شيء بروح العلماء المتوفرين على الدرس والتحصيل. فقد كان محمد عشري رجلاً مثقفاً مطلعاً حقاً. ونبئت أنه قد عكف على قراءة الأدب الإنجليزي، ومؤلفات المصريين المعاصرين، عكوفاً شديداً منذ تخرجه في كلية غردون. إلا أني أرى أنه لم يكن يقرأ كتب القدماء من العرب. ومما يؤكد ذلك عندي غفلته من وهي المتن ومن السرق اللذين في شعر المازني، إذ لو كان اطلاعه في العربية القديمة واسعاً ما غاب عنه ذلك وقد ألم بديوان ابن الرومي، فلم يفته أخذ المازني منه، ولو دقق النظر قليلاً وجده يقلده ويغير عليه.

هذا وقد نحا في مقالتيه نحو النقاد الإنجليز، من حيث أسلوب التحليل، وعسى أن يكون نظر إلى العقاد قليلاً، وعنده من الاحتراس ما ليس عند العقاد، ويروم رومه في التفخيم وتقسيم الكلام أقساماً متعادلات، فيها ما يشبه الزوايا القائمة. ويبعده عن التقليد ما لا يزال يذكرك به من استقلاله برأيه، في اللفتة بعد اللفتة، والإشارة بعد الإشارة. وقد بدأ نقده بوصف مُجمل لروح المازني في شعره، وذلك قوله[1]، والمازني أقرب شعراء مصر العصريين إلى النفس المصرية الصحيحة، لا لأنه مصري فحسب،

---

(١) الفجر: ٧٧.

بل لأنك تطالع في شعره خصائص النفس المصرية ومميزاتها، تلك النفس الحلوة الشمائل، الرقيقة الأخلاق، المفراح الطروب، التي لا تميل إلى الصمت والوقار، ولا تستسلم للحزن والكآبة التي تتندَّر بالمجون والدعابة عفو البديهة، وتدرك النكتة التي تدق على لطاف الأذهان، تلك النفس التي تأسرها المحامد فتقيم لها على العهد، ولو كلَّفها الوفاء حياتها الغالية، والتي تبلغ من حبها لوطنها ودار عزها وإقبالها، ومكان بؤسها وآلامها، ألا تود فراقه أبد الحياة. والتي تكر بها الذاكرة إلى ماضيها الحبيب فتذرف عند ذكراه الدمع السخين، وتحن إلى أوقاته حنيناً يقطع نياطها حسرة على فقده.

بل أن الشجون لتعب بها زاخرة مزدحمة حين يمر بخاطرها ذكر النيل، والليالي المقمرة على النيل، وحين تذكر الندامى والخلصاء والإخوان الظرفاء، وساعات الغناء والصهباء وأويقات مؤاتاة الآمال ودنو لحظات العز والإقبال، تلك النفس التي لا تشيب بشيب الجسم، ولا تزال على تقدم العمر تستفزها دواعي الصبابات الذاهبة، وتستجيشها هواتف الأشواق الفارطة، تلك النفس التي تقول:-

ليت شعري متى تشق بنا النيل جوارٍ ويا عسى ولعلا
محقبا خمرة لنطرب كالبحر ونغدو لصبحة البحر أهلا
أي شيء ألهاك عن مركب النيل وقد كنت لا تني عنه قبلا
ما برحنا نرجو قدومك حتى قد مللنا خلف الرجاء وملا
إن لي مجلساً على النيل فياحاً فألا وافيتني فيه ألا
متعة القلب من ملاحة رأيٍ ومنى النفس من صحابة مجلى

وهي الـراح لا تشعـشع منهـا — وعــليّ الإكثــار نهــلا وعــلا
نقطعُ الليل في احتساء شراب — ليس انفى للهـم منه وأحلى
بين أقداحنا حديث هو السحر — يناجيــك فيــه قلــب تملــى
لــيس تــستعذب المُدامــة إلا — بنــديم أرق منهــا وأحــلى
صاحب مؤنس وكأس دهـاق — ذاك حسبي لو يجعل الدهر فعـلا

وأنت إذ تقرأ شعر المازني لا تكاد ترى فيه إلا ذكرى واحدة لماضي محبوبٍ. وإنك لتلمح فيه تلظي نفس وامقة تود لو تبدل الدنيا برجعة ولـو في الحلـم إلى ذلـك المـاضي الحي، فتنسى عنده همومها وأشجانها، وتجدد عيشة سلفت وكانت ملء العين والفؤاد، وما هو الشعر إن لم يكن ذكرى يجددها الأمل، أو أملا تجدده الذكرى؟ بل كيف يكـون حديث النفوس ونجي الضمائر إن لم يكن وقفة طويلـة عـلى هياكـل الأمـس تـستعاد فيهـا عواطف السرور، وأشجان الكدر، وارتفاعات الرجاء، وانخفاضات اليأس، ثـم اندفاعـه إلى الأمام يحفزها الشوق المتدفق، وتستفزها الرغبة الملحة والأمل الواثق؟ وإن لشعر المازني لخفة تكاد تطير بروحه، وصفاء في الضمير يكاد يجعل خلقه أنقى من الماء، وأحلى من المنى، وإنه ليحفظ الوداد حتى تستثار حفيظته، فيهيج هائجه، ثم يعاوده تسامحه، فيسكن ويعتذر، وتلحظ وداعته ولطافة نفسه في تضاعيف ثورته واندفاعه:-

مــا رأينــاك بالإخــاء خليقــاً — ورأينــاك أهــل هــذا الجفــاء
قد تكلفت أن أعارض طبعي — وأجاريــك مــرة في الهجــاء
فرأيــت الكــريم يعجــز عنــه — عجـز بـرد الـشتاء عـن إدفـاء

وأن حنينه إلى أصدقائه وتذكاره لهم وشغفه الشديد بلقياهم، وحفظه لعهودهم، لتجعل فؤاده يخفق خفقاً ولا يقر له قرار حتى يكون في جمعهم (كما يُومي إلى القوم الغريق)، وإنه ليكره العدوان والبغض ولا يطيقهما، ويحب المسالمة والوفاق فلا يشوبها بعتاب أو اعتذار.

خليلي ما يغني العتاب إذا انطوى ... على البغض قلب كالزمان حؤول
إذا لم يكن صدقي لود بنافعي ... فكل مقالات العتاب فضول

وإن نفسه ليطير بها المرح حتى لتعربد فتوسع الدنيا لذعاً وسخرية وفكاهة وما يكبح جماحها كابح، وما تخشى قول الناس وما تهجس به ظنونهم.

النجاء النجاء يا ابن الـ.. ... من سيوف الهجاء ذات المضاء
لا لعمري وأين تهرب مني ... ومناياي طي هذا الهواء
أنا كالموت مدرك كل حي ... أتحداه بالأذى والهجاء
أنا كالشمس مدرك ليلك الأسود ... بالنور واللظى الكواء
أتوخاك حيث كنت من الأرض ... ولو غبت في حبال الهباء
لو تخذت الرياح خيلا لما ... أفلتَّ فارضخ لشيئتي وقضاء
ولئن طرت في السماء فأني ... بالغ منك مأربى في السماء
ويميناً لأجعلنك أحدوثة ... كل الركبان والإملاء
ناشراً كل سوأة لك ... تطويها دؤوباً وفعلة شنعاء
ومعيداً من حفرة القبر ... أشلاءك أنتِنْ بهن من أشلاء
فإذا كنت ما زعمت من الإنسان ... أطرقت شدة استحياء

هذا هو التمهيد الذي قدمه فنعت به روح المازني الشاعر. ثم أخذ بعده في وصف شعره والتمس أن ينسبه إلى إحدى هذه المدارس التي يتحدث عنها النقاد.

ونقف قليلاً عند هذا التمهيد. وأحسبك رأيت كيف وصف الكاتب شاعره بالحنين، وجعل هذا طابعاً مصرياً، ثم استشهد له بشعر يلائمه، وأتبع ذلك وصفه بالرقة ولين الجانب، واستشهد بالأبيات التي انتهينا عندها. وقد أدرج ما استشهد به في سياق حديثه، مع تأنق اختيار عباراته، وشيء من تشجيع وإسراف في السلامات المزحلقة. ولا يخفى ما في هذا المذهب كله من طريقة التأني إلى استحالة القارئ، وهي طريقة يكثر منها النقاد الإنجليز، في ما يذهبون فيه مذهب الاستحسان، ولا أن أخطئ إن قلت إن أكثر الغرب المحترفين يفعلون ذلك، وقد تأثر بهم جماعة من كتاب العربية المعاصرين، ولا يخلو محمد عشري من أن يكون نظر إلى هؤلاء، إلا أنه نظره إلى من قدمت أشد، إذ في كتابته نفس كثير من الإنجليزية، خذ مثلا قوله (بل كيف يكون حديث النفوس ونجي الضمائر إن لم يكن وقفة على هياكل لأنها تستعاد فيها عواطف السرور وأشجان الكدر وارتفاعات الرجاء وانخفاضات اليأس ثم اندفاعه إلى الأمام يحفزها الشوق المتدفق وتستفزها الرغبة الملحة والأمل الواثق) فكيف وأن الشرطية فيهما مشابه من التراكيب الإنجليزية وقوله تستعاد فيها عواطف السرور إنما هو من قولهم To recapture the happy feeling وقوله ارتفاع الرجاء وانخفاضات اليأس إنما هو من قولهم the to the tides of hope and the ebbs of despair اندفاعه إلى الأمام إنما هو من قولهم a forward thrust or a push

ونعته للشوق والرغبة والأمل، مع استقامته في العربية، يحمل شيئاً من الأسلوب الإنجليزي، هذا ولا يفوتني هنا أن أنبه إلى موضوع السرق الشاهد الأول، في قول المازني:

ليت شعري متى تشق بنا	النيل جوار ويا عسى ولعلا
محقبا خمرة لنطرب كالبحر	ونغدو لصحبة البحر أهلا

فهذان البيتان قول الأعشى:-

ليت شعري متى تخب بي	الناقة بين العذيب فالصيبون
محقبا ذكرة وخبز رقاق	وحباقا وقطعة من نون

وقد ذكرها المعرى في رسالة الغفران ووقف عندهما وقفة قصيرة تنبه على موضعهما فلعل المازني أصابهما هناك ولا يُحمل هذا الأخذ على التضمين حين إذ هو أشبه بما تسميه البلاغيون «السلخ» وفي سائر الأبيات يعد تقليد كثير وأظهره الذي في قوله:-

إن لي مجلسا على النيل	فياحاً فالأ واتيتني فيه ألا

والفياح هنا ضعيفة والمجلس لا يدعى إليه بأن المؤكدة في نحو هذا السياق وإنما يجاء بذلك في نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ ﴾ المزمل: ١٢ – ١٣. ونحو قول أبي الطيب:

إن دون التي على الدرب	والأحدب والنهر مخلطا مزيالا

ونحو قول البحري:

إن بالجزع في الكثيب إلى الآرام ربعاً ربما لآل هند محيلا

إذ للتفخيم في كل هذا موضع بين: وكـ «إن» المؤكدة في النبو قوله «ألا وافيتني فيه ألا، ووافيت بعد ألا» ضعيفة كما ترى، ولو قال فهلا وافيتني فيه ثم اختتم بغير التكرار، ولا أدرى كيف يتأتي ذلك، كان أجود ومما يجري مجرى قوله:

إذا لم يكن صدقي الوداد بنافعي فكل مقالات المتاب فضول

فالصدر من قول أبي الطيب، إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى، والعجز من قوله: «فكل الذي فوق التراب تراب» ونحو هذا يحتمل. وقوله ((فرأيت الكريم يعجز عنه عجز برد الشتاء عن إدفاء، ضعيف متهافت وبرد الشتاء لايقال أنه عاجز عن الإدفاء وإنما تعجز نار البائس مثلاً كما جاء في بيتي أبي العلاء..

ولدي نار ليت قلبي مثلها فيكون فاقد وقدة وسخائم

عبثت بثوبي والبساط وغادرت في غرفتي أثراً كوشم الواشم

ونعود إلى ما كنا فيه من حديث محمد عشري. وقد ذكرنا أنه أخذ هذا التمهيد في نعت الشعر نفسه، ووسمه باسم المدرسة التي ينتمي إليها. فزعم أن الشعر أو كما قال ينحدر في مسيلين عظيمين ((الشعر القديم أو الكلاسيك الذي يسير على أنماط القدماء، ويحتذي نماذجهم في الفصاحة والبيان ويرى فيها المثل الأعلى والغاية التي إن قصر عن بلوغها كان من سقط المتاع، وهو الشعر الذي تحكمه القواعد الصارمة والتقاليد والأوضاع التي رسمها القدماء وهي تقرر أساليبه ومعانيه التي يتداولها إلى حد كبير، ويظهر هذا الشعر في روعة قصائد البارودي وشوقي وحافظ وأغلب قصائد

مطران. والشعر الوجداني أو الرومانتيك وهو الذي يتحرر من قيود القافية القديمة ومن نهج الفكر والأسلوب القديمين ولسنا نقصد أنه كان دائماً كذلك، فإن زعماء النهضة الرومانتيكية في فرنسا أوائل القرن التاسع عشر وعلى رأسهم فيكتور هوجو قيدوا أنفسهم بعادات وأوضاع أدت بأشعارهم في النهاية إلى العقم والجمود حتى جاء بول فيرلن فثار في وجوههم وحطم أوضاعهم وتقاليدهم و للشعر الوجداني وأعاد للشعر طلاقته وقوته وروعته ونضارته.

وأريد أن أقف عند هذه القطعة قليلاً لأن فيها بعض ما أشرت إليه من روية محمد عشري، ومحاولته أن ينهج نهج أهل الدرس والتحصيل. وقد عرف كلا المذهبين الرومانتيك والكلاسيك تعريفاً حسناً كما ترى. ولكن حرصه على الاستيفاء والاستدلال زل به في موضعين. أولهما وصفه لشوقي وحافظ ومطران بأنهم كلاسيك. ولعله اتبع في هذا بعض النقاد المصريين. وإن الكلاسيك والرومانتيك نعتان أفرنجيان يطلقان على أنواع من الآداب الأفرنجية وربما أصبناهما مشابهة في آدابنا، ولكن التشابه قلما يصل إلى مطلق التماثل، وثانيهما ذكره فيكتور هوجو وبول فارلين وهذان فرنسيان واحسبه ذكر الأول لما وجده من نقد بعض الإنجليز له، وذكر الآخر لما وجده من مدح بعض المعاصرين المصريين له، وكان أشبه باطلاعه لو استشهد بكولردج وورد ثورت وبايرون ووالتر سكوت، ولا يسلم محمد عشري في هذه القطعة التي ذكرناها من التقليد والنقل على كل حال. ولكنه كان يعلم مدلول الاصطلاحين اللذين كان يتحدث عنهما علماً تاماً يدلك على ذلك نقده للمازني من بعد حيث قال:

«إنا إذا نظرنا إلى القوالب والأساليب التي يصب المازني فيها عواطفه وأفكاره، وسبرنا مبلغ قدرته على ابتكار البحور الجديدة أو المزاوجة بين البحور القديمة حتى تخرج شيئاً جديداً أو شبيهاً بالجديد، لا نستطيع إلا أن ندرجه في أصحاب الشعر القديم، وإذا تذكرنا أن المازني يتأثر تأثراً ظاهراً وأحياناً قوياً في كل شعره بالقدماء في أساليبهم اللغوية وعلى الخصوص بابن الرومي الذي احتذاه في كثير من أغراضه وقوافيه احتذاء لا ينكره من له أدنى إلمام بديوان ذلك الشاعر، لا نستطيع إلا أن نؤكد أنه من القدماء ولكن إذا نظرنا إلى هذه الحياة الروحية التي يجيش بها شعره، وهذه الرغبات القوية المتصادمة، والإعجاب الشديد بالطبيعة ومخلوقاتها، وهذا الإلمام الواسع بالتاريخ والخرافات والأساطير، وهذا الإحساس الرقيق بالحب الإنساني والتفطن الصحيح للمعنى الشعري، والخيال الواسع، والثورة المتدفقة على التقاليد الاجتماعية والأخلاق العصرية، لما بخلنا عليه بالاندماج في حظيرة الشعراء الوجدانيين، على أنا نلمح في شعره رجعة إلى عصر ذهبي موهوم، كذلك الذي كان يسعى إلى تحقيقه الشعراء الوجدانيون في أوروبا. ونكاد نرجح أنه يرى مطابقة الحياة للشعر أو للفن ويقول بما يشبه قول العقاد في فكرة الكون الفنية».

لا نريد أن ننكر على المازني أنه شاعر وجداني على الأقل، لأنا نعلم أن التحرر من القوافي المملة والبحور الثقيلة التي توارثناها عن العرب ليس بالأمر الهين. وإن كنا نلحظ أن المازني ومعاصريه قد حاولوا ذلك. ولا نقول إنهم نجحوا في خلق بحر جديد أو حتى المزج بين بحور متعددة حتى يصدر منها شيء جديد لا مثيل له بين أشعار

القدماء. وحسبهم أن مهدوا الطريق بجرأتهم في تهيئة الأذهان لقبول الجديد في قوالب الشعر وأوزانه. فهو شاعر وجداني حقاً فنظرة في قصائده والأسماء التي يصفها بها،تريك أنه لا يتأثر من معانيهم ولا في نهج تفكيرهم وإدراكهم للأشياء والمواقف والحالات، وله ميزة في شعره تكاد تسلكه في عداد شعراء الطبقة الثانية ما الوجدانيين، فهو بما وهب من قوة في الخيال وقدرة على الأداء يُجسّم الخاطرة حتى لتملأ الحواس ويُعَبِّر عن أحلام يقظتنا حتى لنكاد نراها رأي العين انظر إلى قوله في الدار المهجورة:

ليس يلقى عندها الصوت قرارا

كلما أرسلته مل الجوارا

واسترد المرء منه ما أعارا

تثبت الأصداء عنها مثلما	طارت العقبان طيرا عن عقاب

وانظر إلى قوله في مناجاة الهاجر:

يلُفُّنا الليل في طيات حِندسه	كما يغيِّبُ سر المرء كتمان
وللصدى حولنا حال مروعة	كأنما تسكن الغيران جنان
كل موت صدى في كلّ منعطف	كما تجاوب عساس وأعيان
يطير كل صدى عن كل شاهقة	كما تطير عن العقبان عقبان
تبدو لأعيننا البلدان كالحة	كالوجه غضَّنَهُ سِنٌّ وحدثان

أو اقرأ له:-

حيٍّ يا أتروب ألوان الصباح	طلع الفجر عليكم بالرمم
بين ندب وعويل وصياح	جاء وفد الموت من كل الأمم
جاء وفد الموت يحدوه الدليل	ويُغني سوطه فوق الظهور
ويميل الصف في كل مهيل	وهو خلف الصف وثاب يدور

ثم أخذ محمد عشري في تعداد ميزات المازني، ولا أراك غاب عنك أنه يُبدي لنا من نفسه في هذه القطعة ما لم يكن يبدو من قبل. ذلك بأنه يصدقنا عجزه بادئ الرأى أن يخرج المازني من القدماء، لما يراه عنده من التزام بحورهم وتقليد أساليبهم، ولا سيما أسلوب ابن الرومي، ثم إنه يصدقنا حيرته من بعد عند هذا الذي يجده في شعره من شبه الوجدانيين الأوروبيين في الأفكار والصور والنزوع إلى الماضي (والعصر الذهبي الموهوم). ثم يلتمس نعتاً له بين هذين، فيقول: إنه شاعر وجداني في مصر على الأقل، -تم يجسر بعد ذلك فيقول:-«إنه شاعر وجداني حقاً» وكل هذا كما ترى يشعرك بفكر مستقل، يتروى ويطلب وجوه التدليل على ما يراه صواباً، ولا أكاد أشك أن عشرياً لو فطن إلى ما في شعر المازني من النظر إلى أفكار القدماء وأخيلتهم لثبت على رأيه الذي رآه أولاً، وبعده من متبعيهم وإذن لحرمنا هذه الكلمة وأختها. ذلك بأن عشرياً كان يريد التجديد ويؤثره، وحسبانه أنه ظفر بشيء منه في ديوان المازني، هو الذي أقدمه على ما كتب. وفي الأبيات النونية التي ذكرها يستدل بها على الخيال الوجداني، وهي قوله:-

يلفنا الليل في طيات حندسه ... كما يغيب سر المرء كتمان

وللصدى حولنا حال مروعة ... كأنما تسكن الغيران جنان

لكل صوت صدى في كل منعطف ... كما تجاوب عساس وأعيان

يطير كل صدى في كل شاهقة ... كما يطير عن العقبان عقبان

تبدو لأعيننا البلدان كالحة ... كالوجه غَضَّنهُ سن وحدثان

نظر شديد إلى ذي الرمة، كأنه إعارة، وذلك قوله:

بين الرجا والرجا من كل واصية ... كأن خابطها بالخوف مكتوم

للجن بالليل في حافاتها زجل ... كما تناوح يوم الريح عيشوم

هَنّا وهَنّا ومن هنّا لهن بنا ... ذات الشمائل والأيمان هنيوم

داويَّة ودجى ليل كأنهما ... يم تراطن في أفدانه الروم

ولا ريب أن قول المازني «كما تجاوب عساس وأعيان، من قول ذي الرمة تناوح يوم الريح عيشوم» والصورة التي ذكرها المازني أبعث على الضحك منها على استشعار الهول. وذو الرمة مما يكثر تشبيه الفلاة والصبح والجبال والكثبان بالوجه والعاتق والعبة وغير ذلك من صفات النساء، فأحسب أن المازني نظر إليه في قوله:

تبدو لأعيننا البلدان كالحة ... كالوجه غضَّنه سن وحدثان

على أن الكلوح والتغضين ليسا بالأمر الواحد وليس كل ذي غضوان بكالح، وقوله «حدثان» أظنه أراد به الحدثان، وحدثان الدهر وتجريد الكلمة من أل والإضافة يجعلها أدل على حداثة السن، ولم يرد المازني ذلك.

ويعجبني لذي الرمة مما شبه الطبيعة بصفات النساء قوله.

كأن عمود الفجر جيد ولبة ... وراء الدجى من حرة الوجه حاسر

وقول المازني كأنه عُكِسَ من هذا ونحوهن وتشبيه الوجه الجهم بالصخرة قديم، ومن البليغ المعجز في هذا الباب قوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) ﴾ عبس: ٣٨ - ٤٢ .

ثم إن عشرياً ذكر للمازني ميزة أخرى وهي القصص واستشهد بأبيات همزية زعم «أنها فريدة في بابها بين قصائد إخوانه المعاصرين» وهي قوله:

زعموا أن معشراً ركبوا الماء ... وحثُّوا سفينهم بالغناء

فرآهم قزم فنادى مهيباً ... أن دعوني أكن من الشركاء

أنا قزم كما ترون فلا تخشوا ... زحامي مجالس العظماء

فرضوا وانبرى إليه سفيه ... حسب الفضل كله في الرياء

ذو لسانين بل بوجهين ملاق ... ووجه يعيب بالإيماء

يتلقاك خاشعا باسم الثغر ... ويلقى حبائل الحقراء

وإذا ما سمعته قلت سبحانك ... ربي، ذا أوحدُ الفضلاء

وإذا ما بلوته لم تصدق ... أنه ينتمى إلى حواء

ورآه القصير يضحك منه ... حاسباً أنه من الأغبياء

وإذا بالسفين جاش بها التيار ... والقزم آخذ في السناء

وأحس الرفاق بالضيق حتى ... عالجوا غمرة الردى والفناء

وأخونا القصير يكبر أضعافا ولكن عن صحة وامتلاء

وانثنى سائل يقول من العملاق أنا في كربة في بلاء

قال كنت القصير قدماً فأما الآن فالضخم هائل الأنحاء

ولا ريب أن في هذه الأبيات نفس المازني. وأحسب عشرياً أصاب في قوله:-

والذي نأسف له كثيراً أن المازني لا يكاد يتنبه لها (أي المقدرة على القصص) في شعره كما يحاول تغذيتها وتقويتها في نثره وما كنا نشك في أن الأدب المصري كان يفوز بباقة من أشعار القصص تضاهي ما عند كبار شعراء أوروبا القصاصين.

وفي هذا القول الأخير نظر لأن هذه الأبيات الهمزية على صدقها عن صاحبها فيها ضعف كثير، والقصص الموزون يسمج إن لم يساعفه أسلوب متين.

ثم بعد أن ذكر ميزات المازني الغالبة على شعره في التحليل المفصل فذكر أنه يحب من مظاهر الطبيعة الريح والبحر والظلام والسحاب والكهوف وضرب أمثالاً من شعره لهذا الحب. ثم خلص إلى أنه يعجب بالفخامة والروعة والجلال والرهبة في مظاهر الطبيعة ومشاهدها، وأنه لذو شغف كبير بتصوير ثوراتها وهياجها، وأنه ليمل من وصف لحظات هدوئها وصمتها ثم أخذ يعلل هذا الإعجاب تعليلاً نفسياً، فقال: ((ولقد لقي هذا الرجل من عنت الزمان ما لقي، وأصيب في فلذات كبده وشريكة حياته، وفي رجله وبلا الكثير من تقلبات النجاح والفشل ومرارة الخمول، وعلى أن نفسه السليمة الحساسة طبعت على الملل من الأيام ودورانها من جفاء الخلصان وفقدانها لهم بعد أن كانت بهم جد ضنينة، ومن لؤم الناس وتلونهم وخبث نياتهم

وفساد ضمائرهم وعقولهم، فأين إذن تهرب مثل هذه النفس التي كرهت الحياة وعافت الناس؟ إلى الكهوف والرياح والظلام؟ إلى الطبيعة الصاخبة المخيفة حتى لا تسمع من أنباء الناس ما يجدد أوصابها؟

وكان عشرياً حكم على المازني بنوع من التشاؤم. وقد أحس بأن هذا يناقض ما قدمه بادى بدء من أنه شاعر مقبل على الحياة، فالتمس مخرجاً وذلك زعمه أن المرح والسخرية والفكاهة كل ذلك مما يستعان به على احتمال الحياة، وأخذ في تفصيل حسن عن طبيعة السخر وأثبت للمازني منه نصيباً وافياً.

ثم بعد أن استوفي ميزات المازني، أقبل على عيوبه، قال: «بقي أن نذكر عيوب المازني لأن هذا من حقوقنا إن أردنا إنصافه من أنفسنا، وإنصافه من نفسه غير أنا لا نطالبه بما لا قدرة له عليه، ولا نطالبه بما حاول. أول ما نلاحظه عليه أنه أحياناً يفقد التناسب في معالجة موضوعاته ودرسها. والتناسب في معالجة الموضوعات الشعرية يدل على أن الشاعر فكر مليا، وأعمل وجوه الرأي فيما يود أن يقول من خواطر وأفكار، والأسلوب الذي يكون أعمل في النفس وأحرى بإنتاج الأثر المطلوب، والإيقاع أو النغم الجدير بخلق الحالة والصورة المقصودتين، فإذا نظرنا إلى قصيدته محاسبة النفس توقعنا حساباً شديداً عنيفاً يحيط فيما يحيط بماضي النفس وحاضرها ومستقبلها ويلم بمكاسبها وخسائرها وآمالها ومصائرها ووسائلها وأغراضها وملكاتها واحتمالاتها وفرحها وأوقاتها وعلاقاتها بغيرها من النفوس، وبالحياة المتغلغلة في نواحي الكون وبالكون ذاته، ثم لمحة في نجاحها وفشلها في مضمار البقاء، وتوقعنا فوق ذلك من المازني كشاعر يمتاز بالحساسية المتوثبة المثقفة والإلهام الشعري الذي

يرفعه فوق مستوى الجمهور أن يقول ما لا يقدر على قوله ذلك الجمهور وإن كان يحسه في قراره فؤاده ولا يهتدي إلى معانيه لغموضها وتعقدها واتصالها بأقدس أعماق النفس واستعصائها على النظر الخاطف والفكر السطحي، ولكن المازني لا يقول شيئاً من ذلك. بل كل ما يصل إليه خياله بضعة أبيات كل ما فيها أنه أضاع شبابه بين الأحلام والتخيلات، ولقد ذهب ذلك الشباب لغير رجعة، ولو أنه أدرك بعضاً من العلم والفطنة والتجارب لم تفده كثيراً لأنه مفلول الإرادة يطيع الجواذب أنى مالت به. ثم قال:

كأن لنا عمرين عمراً نريقه ... وآخر مذخوراً لنا في المغائب

ألا ليت عمر المرء يُرفى كثوبه ... ويُرقع منه جانب دون جانب

وهذا مجرد كلام يعرفه كل إنسان ولا حاجة لأن ينظمه لنا شاعر نحس به ونفهمه. ثم يضرب عشري أمثلة أخرى من شعره ولا يذكر له سوى عدم التناسب ومن العيوب أنه يكثر من التكرار والغريب. ولعلك تجد في هذه القطعة شاهد ما ذكرناه آنفاً من استقلاله برأيه، إذ هو مع إعجابه الشديد بالمازني لا يتردد في أن يتعقبه هذا التعقب الذي لا هوادة فيه، ولا إخاله خفي عنك في هذا النقد ما قد حدثناك عنه في أول حديثنا من الروح المتطلع إلى المجهول-ألا ترى عشرياً ههنا يلوم شاعره على أن حام دون هذا المجهول، ولم يتغلغل إلى أسراره كما ينبغي لأمثاله.

ثم يختم عشري نقده، باستشعار الأسف لأن المازني هجر الشعر، ولو كان توفر عليه، لكنا. كما قال «نغنم منه شاعراً فذاً بين أفذاذ الشعراء».

هذا ولعشري سوى هذا الذي استشهدنا به من نقده للمازني مقالات عالج بها مسائل عن الأدب والاجتماع، وددت لو قدرت على أن أقف عندها يسيراً، ولكن

أحسب أن في هذا الذي قدمته ما يشهد بما نعتّه به من سعة الاطلاع، وحسن الروية، وسلامة الأسلوب، مع النظر إلى بعض المعاصرين في مصر والخارج. وأجدني مضطراً لأن أقتضب هذا البحث القصير اقتضاباً ولا زالت في نفسي منه أشياء. ففي الفجر سوى ما ذكرت أنواع من القصة، عليها طابع ما أشرت إليه من التطلع إلى مجهول الحب، مع الغلو في المثالية، كقصة البرتكان التي تتحدث عن فتاة غضة، ضن بها أهلها على من تحب، وهان أمرها على هذا فتزوج غيرها وصار بها الدهر إلى شيخ هرم فجعلت تذوي عنده ثم طلقها وما زال بها السقم حتى مرضت وهلكت. وعادها قبل موتها الفتي الذي كانت تحبه وقال لها «جئت لأفاتحك في أمر زواجنا لأني لا تزال روحي طماحة إلى الزواج منك، وإن لم نوفق في خطوتنا الأولى فعسى أن نوفق في الخطوة الثانية. فرفعت رأسها قليلاً وهي مريضة متعبة وفي ألفاظ متعطِّفة أجابته: «كان هذا قبل اليوم لقد رضيت بزوج أخرى ونسيتني وأنا طلقت زوجي وودعت شبابي وقبرت جمالي من أجلك. الرجال لا يرعون عهود النساء. أما أنا فلن أبلّ من علتي هذه لأن دائي عضال. وإذا مت فضع فوق قبري غصنا من الشوك دليل نكران الجميل).

وقصة أخرى أحسبها من خير ما كتب في الفجر، وأدله على روح عصره بعد التجربة، وهي تحدثنا عن فتاة زلت، ورامت الطهر من سبيل الحب، فحيل دون ذلك، وآل أمرها إلى الحسرة المرة، ثم صارت بغياً آخر الأمر-، قال الراوي- مضت أيام قلائل وإذا نفيسة في مدينة أخرى يروج فيها الفساد والدعارة، وإذا بها تتزعم العواهر وتسكن في بيت أمام بيت أهلها الذين نزحوا من القربة، بعدما لوثتهم من عار، وإذ بنفيسة تحطم لوحتيها العزيزتين وكل الصور ولا تعلق في غرفتها غير لوحة واحدة، وقد كتب فيها بالخط العريض (أنس نفسك).

هذا وكنت أود أيضاً أن ألم بأدب المرحوم معاوية محمد نور، فقد كان معاصراً لجيل الفجر وأقام زماناً بمصر يكتب في صحفها، وانتمى إلى بعض المدارس الأدبية ثم عاد إلى وطنه فتجهم له العيش ثم أنهكه المرض ومات. وقد ترجم له إدوارد عطية في كتابه الإنجليزي An Arab Tells His Story وترجم له الدكتور عبد المجيد عابدين في كتابه دراسات سودانية، ونثره في جودة الذين كان يساجلهم ويشاركهم في المذهب بمصر، ومما يجدر أن يوقف عنده. إلا أنني في هذه الكلمة الموجزة إنما أستعرض اتجاهات النثر السوداني وما كان له أثر باق منها أعلق بالذي أنا فيه من سواه وإن حسن. ولا أشك أن المرحوم معاوية لو أقام مع جيلي الفجر والنهضة في السودان، لكان له من الأثر في توجيه أدبهم بنحو مما كان لمحجوب والعشريين وأحمد يوسف، بل لعله كان يُربي عليهم بما أوتيه من الذكاء الواقد، والحماس المشتعل، مع الروية والملكة.

وأراني مضطراً لأن أجعل هذا خاتمة أحاديثي. إذ قد أخذ النثر منذ مبدأ الحرب الثانية يتجه اتجاهات متشعبة لابد في درسها من تحصيل واستقصاء يضيق عنهما هذا المقام. وقد اتفق مع مطلع الاستقلال نشاط في المطبعة لم يسبق له نظير في السودان، منه الجاد ومنه الجزل الرصين، ومنه ما لا يكاد يعرف أعربي هو أم أعجمى لما يكثر فيه من اصطلاحات اليساريين ولِّفهم نحو (الانتمائية) و(الأنا الصاعد) و(الفعالية) و(الأفشال)[1]. وهلم جرا- فنحتسب بهذا القدر، والسلام عليكم ورحمة الله.

---

(١) الانتمائية من انتمى والأنا الصاعد فيه إدخال أداة التعريف على (أنا) وهي رأس الضمائر والفعالية يريدون بها قوة التأثير والأفشال جمع المصدر فشل والعياذ بالله.

فهرس

تمهيد ١

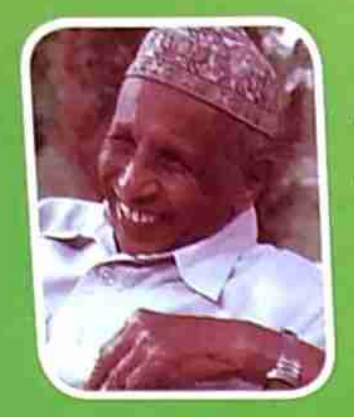
من النثر الصوفي إلى الصحافة ١٥

النثر في المهدية ٢٦

النثر المعاصر..٣٨

المحجوب ومحمد عشري ٥٤

محمد عشري..٧٥



البروفسور عبدالله الطيب

- ولد بغرب الدامر في ٢٥ رمضان ١٣٣٩هـ - ٢ يونيو ١٩٢١م.
- والداه الطيب عبدالله الطيب وعائشة جلال الدين الطيب وهو ابن محمد بن أحمد بن محمد المجذوب.
- تعلم بمدرسة كسلا والدامر وبربر وكلية غوردون بالخرطوم والمدارس العليا ومعهد التربية ببخت الرضا وجامعة لندن بكلية التربية ومعهد الدراسات الشرقية والإفريقية.
- نال الدكتوراة من جامعة لندن SOAS سنة ١٩٥٠م.
- عمل بالتدريس بأم درمان الأهلية وكلية غردون وبخت الرضا وكلية الخرطوم الجامعية وجامعة الخرطوم وغيرها.
- تولى عمادة كلية الآداب بجامعة الخرطوم (١٩٦١-١٩٧٤م).
- كان مديراً لجامعة الخرطوم (١٩٧٤-١٩٧٦م).
- أول مدير لجامعة جوبا (١٩٧٥م - ١٩٧٦م).
- أسس كلية بايرو بكنو بنيجيريا وهي الآن جامعة مكتملة.
- عمل أستاذاً للعربية بالمغرب في كلية الآداب بجامعة سيدي محمد بن عبدالله بفاس.
- عين أستاذاً ممتازاً مدى الحياة (بروفسر أميرتس PROFESSOR EMERITUS) بجامعة الخرطوم في سنة ١٩٧٩م.
- له عدة مؤلفات منها المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، والأحاجي السودانية، ونافذة القطار.
- له عدة دواوين شعرية مثل: أصداء النيل وبانات رامة وأغاني الأصيل، وزواج السمر.
- عمل بمجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ سنة ١٩٦١م.
- أول رئيس لمجمع اللغة العربية بالخرطوم.
- منح الدكتوراة الفخرية من جامعة الخرطوم سنة ١٩٨١م ومن جامعة بايرو بكنو بنيجيريا ١٩٨٨م ومن جامعة الجزيرة السودان ١٩٨٩م.
- شارك في عدة مؤتمرات في السودان وخارجه.
- له مساهمة في الصحافة والإذاعة والتلفزيون.
- فسر القرآن الكريم كله من إذاعة أم درمان بين ١٩٥٨-١٩٦٩م مع تلاوة الشيخ صديق أحمد حمدون رحمه الله تعالى رحمة واسعة.
- نال جائزة الملك فيصل سنة ٢٠٠٠م.
- توفي سنة ٢٠٠٣م يوم الخميس ٦/١٩ وترك أكثر من ٤٥ كتاباً عدا المحاضرات والبرامج الإذاعية والتلفازية.

طبع تحت رعاية African paints

شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

ردمك: ISBN: 978-99942-4-524-6